

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

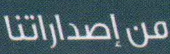
النداء الخالد

The Lasting Call



Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني









Design by Abdul Rahman Magdy





د. نجيب الكيلانى

النداء الخالد

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/١١٣٦٦

الترقيم الدولي:

978-977-255-394-5



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

القسم الأول:

فى جحيم الحرب

•• الفصل الأول

انطلقت صيحة ملتاعة من بيت «عبد العزيز شلبى»، وتردد صداها فى أفق القرية الواجمة، فمزقت سكون الليل الدامس، ولم يكن من المتوقع أن تمضى هذه الصرخة سدى، أو يتبدد صداها دون أثر، إذ سرعان ما تيقظ الكثيرون من أهل القرية، نحو بيت «عبد العزيز شلبى» يستجلون حقيقة الأمر، حقًا إن الأيام كانت كلها أيام كوارث وخوف وعذاب، وليس غريبًا أن تسرى فى أرجاء القرية قصة جديدة، تروى سطور مأساة حديثة، ومع انتظار المصائب، إلا أن شغف الناس للإلمام بها، ومعرفة خباياها، يدفعهم دفعًا إليها، لعلهم يخففون قليلاً من حدتها، أو يعزون أنفسهم بنكبات غيرهم.

وتسابقت المشاعل الواهنة المرتعشة نحو البيت، وتجمهروا أمامه.. كانت سيدة البيت -زوجة عبد العزيز شلبى- تلطم خدودها، وتشق ثيابها، وتلطخ وجهها ويديها بالطين، وكان وحيدها أحمد -الطالب بمدرسة المهندسخانة- يقف ذاهلاً فى ركن من أركان باحة البيت الواسعة، وقد تورمت عيناه، واحتقنتا من شدة

البكاء، لكن قبضته كانتا متكورتين وكأنه يهدد عدواً لا يظهر للعيان، ووقف الناس أمام هذا المشهد حائرين، وانبعث صوت مرتجف لامرأة عجوز تحمل فى يدها المعروقة مصباحًا زيتيًا متسخًا، وقالت:

- ماذا جرى يا أم أحمد؟

ولم تعرها «أم أحمد» أى التفات، فلقد بدت المسكينة وكأنها قد أصبحت فريسة لنوبة من نوبات الجنون المدمر، كانت تدق صدرها، وتضرب رأسها فى الحائط، وتشد خصلات شعرها تريد اقتلاعها، والتف بضعة نفر حول «أحمد» وقال أحدهم:

- خير يا ولدى؟

قال «أحمد»، وهو يصر على أسنانه:

- فعلها.. خلاف عبد المتجلى.. أجل.. حضرة العمدة هو الذى فعلها.

وران على الجميع صمت رهيب، وشل الخوف ألسنتهم عن النطق، وأوقف أعضاءهم عن الحركة، وتسمروا فى أماكنهم كتماثيل من حجر، ولكن «الشيخ عنبة» -وهو صاحب محل بقالة صغير- وثب من بينهم، واقترب من «أحمد» وقال:

- لتشرح لنا الأمر يا أحمد أفندى.

قال أحمد وهو يجفف دموعه:

- إن ما حدث يحدث كل يوم منذ أن اشتعلت الحرب عام ١٩١٤.. ألا تعرفون كلكم لا تجهلون الحقيقة المرة.. والعمدة

يستغل الظروف القاسية، ويدوس على ضميره وينتقم من أعدائه، لقد دبر الأمر بليل، وهكذا قبضوا على أبى فى مدينة «زفتى» اليوم.. قبضت عليه السلطة كى يبعثوا به إلى ميدان القتال فى خدمة القوات الإنجليزية.. كى يعبر الطرق، ويشق الترع فى أعمال السخرة.. التى تستلزمها الحملة الجديدة التى تواجه الأتراك فى الشام.. لقد ذهب أبى.. أرشدهم العمدة إليه.. رأيت ذلك بعينى.. وغدًا سوف يقبضون على سبعين منكم ليلحقوا به.. ولن يعودوا إلينا مرة أخرى.. ولن يعود أبى.. سيموت فى لهيب الصحراء كما يموت الآلاف غيره.

وكانت دموع «أحمد» تنهمر، وعرقه يسيل غزيرًا، والنظرات المذعورة تتركز على وجهه المحتقن المنفعل، وساد الجميع شعور بالمرارة لا يرحم.. هذا الشعور يبدو وكأنه حبل متين يلتف حول رقابهم فى قسوة، بغية إزهاق أرواحهم.. لم يعد للحياة معنى، وقد امتلأت بالرعب والمظالم والجوع.

كان «الشيخ عنبة» لا يترك مناسبة تمر دون أن يعلق عليها، ولم يكن التعليق من بنات أفكاره، فقد كان يحفظ كلمات «الشيخ جمال الدين الأفغانى» ومقالاته عن ظهر قلب لطول ملازمته إياه أيام أن كان طالبًا فى الأزهر، وكان يطلق على الأفغانى كلمة «حبيبى»، فما إن سمع ما قاله «أحمد» حتى شحب وجهه وارتعشت شفته وتمتم:

– يقول حبيبى: إن الأزمة تلد الهمة.

ولم يكن أحمد فى وضع يسمح له بأن يتلقى حكم الشيخ، وكلماته البليغة، ولهذا صرخ:

- لكن حبيبك لم يقل: لماذا يساق أبى كما تساق العبيد؟ ولماذا يحارب؟ هل الإنجليز سيكونون أحن علينا من الأتراك؟ وأبى.. مريض وكبير السن.. ولن يعود.. أتفهمون وأنتم عندما تذهبون لأعمال السخرة لن تعودوا.. وسيظل نساؤكم وأطفالكم فى حزن دائم، ويعيشون على الأمل والدموع.. ولن يعود أحد منكم.

وانفض الجميع ساهمين، وبقى أحمد وأمه واجمين، وعرفت القرية كلها أن العمدة «خلاّف عبد المتجلى» كان يحقد على «عبد العزيز شلبى»؛ لأنه منافسه الأول على منصب «العمدية»، ولأنه ميسور الحال، ويحظى برصيد هائل من حب الناس وتقديرهم له.. و«عبد العزيز» -وإن لم يكن العمدة- إلا أنه كان الرجل الأول فى القرية بدون منازع، له من صلاحه وبره ونبله ما جعله مسموع الكلمة، نافذ الرأى، تلاحقه الدعوات الطاهرة أينما سار، ويستجيب الناس لدعوته فى أى وقت.

وانطفأ المصباح فى بيت شلبى.

وساد الظلام والسكون.

وبقيت العيون الأربعة مفتوحة تذرف الدموع.

والفجر لم يكن قد أشرق بعد.

●●●

•• الفصل الثانى

نام الأطفال ملء جفونهم، وارتسم على وجوههم النحيلة براءة وطهر، وانبعث غطيطهم خافتًا، إلا البالغين من النساء والرجال فقد خاصم النوم عيونهم، وكيف ينامون والمأساة الجديدة تنسج خيوطها غدًا؟ آه.. ما أشد رعبهم من الغد!! إنهم يعيشون على حافة هوة سحيقة، ولا يدرون متى تدفعهم يد الشيطان إلى أعماقها السوداء المجهولة. ليتهم يعرفون مصيرهم منذ الآن فيستشعرون بعض الراحة؛ لشد ما تصدق الحكمة الشعبية الخالدة «وقوع البلا ولا انتظاره».. ولم لا تساورهم الهواجس، وتلعب بهم الظنون، وهم لا يدرون هل ينامون تحت أسقف بيوتهم، ووسط ذويهم فى الليلة القادمة أم لا؟ إنهم جميعًا يقضون ساعة وداع غير محددة.. إنه العذاب بعينه، العذاب الذى يجعل فى طياته القلق والضياع.

وفى الصباح تكشفت الحقيقة، لقد صدق «أحمد أفندى شلبى» فيما زعم بالأمس.. ها هو العمدة يخب فى قفطانه وجبته السوداء، يتبعه شيخ الخفراء والخفراء.. العمدة يمضى فى عجرفة واعتداد بالنفس، واكفهرار وجهه يوحى بالوعيد والتهديد، إنه لا

يدرك عمق المأساة . . لا يعرف أن الناس حرموا النوم في الليلة الفائتة ، ولأنه هو نفسه لم يذق النوم طعمًا ، إذ ظل يفكر في أعدائه ، ويحصى عدد المشاغبين والمناوئين لسلطانه كى تسوقهم السلطة إلى بعيد ، وظل ساهرًا يفكر في عدد الدجاجات وأزواج الحمام والوليمة الكبرى التى سيقيمها لرجال الإدارة ، حتى يظهر أمامهم بمظهر الرجل الثرى الفخم الذى يملأ مركزه ويليق بمنصبه ، وشتان بين أسباب الأرق عند العمدة وعند غيره من الأهالى ! ! هو فى وادٍ وهم فى وادٍ آخر ، وبين الواديين مسافة شاسعة من الكراهية والعنجهية والأنانية .

وكانت أوامر حضرة العمدة ، وهو يجوب طرقات القرية ، فى حراسة سلاح الخفراء واضحة محددة ، فقد خرج «عبد الغفار الطبال» ذلك الشاب العليل الأعرج ، يصيح بصوته الرنان قائلاً :

– يا أهل البلد . .

اسمعوا التنبيه . .

والحاضر يعلم الغائب . .

ممنوع مغادرة البلد . .

ممنوع الذهاب للغيط . .

البيه المأمور قادم اليوم . . ومعه مندوب السلطة . .

ومن يخالف الأوامر ذنبه على جنبه .

كان صوت «عبد الغفار الأعرج» يتردد فى آفاق القرية وكأنه صفارة إنذار متقطعة تزرع الرعب فى النفوس، وسار خلفه الأطفال يثيرون الضجيج والغبار، أما الرجال فقد وقفوا جامدين مذهولين، وأطلت النسوة من النوافذ والأبواب تترقرق فى أعينهن الدموع، ولم يستطع «الشيخ عنبة» أن يكظم غيظه، فقد ارتجفت لحيته الكثة التى تشبه إلى حد كبير لحية «جمال الدين الأفغانى» وصاح بأعلى صوته:

- هذا ظلم.. إنهم يسوقون الناس إلى الفناء دون جريرة.. ما لنا، وللحرب؟؟

فرد عليه «الخواجة ينى» -وهو يونانى يهودى مستوطن يملك فى القرية مئات من الأفدنة، وله تجارات واسعة- وقال الخواجة:

- لكن الحرب قامت «يا شيخ عنبة» دفاعًا عن الحريات.. وعنكم أيضًا.. لقد أذلكم الأتراك سنين طويلة..

فلوّح «الشيخ عنبة» بيده فى استنكار قائلاً:

- فليكن من أشعلوا الحرب هم وقودها.. فليدعنا الإنجليز، وعندما يقع علينا عدوان فنحن جديرون بالدفاع عن أنفسنا بالطريقة التى تناسبنا.. إنها حرب لإبادتنا وإفقارنا... نحن وقودها.. هل هذا يرضيك يا خواجة؟

وانشغل الخواجة عن «الشيخ عنبة» فقد أتى عميل يريد شراء جوال من الأرز، وقدم آخرون للمساومة فى شراء كمية من الأخشاب، وقال الخواجة وهو يدلف إلى متجره:

- الشيخ عنبة عاطفى جداً . . وسوف يجر عليه حماسه الوبال . . هذا كلام يحاكم عليه عسكريًا . . إنه ينسى دائمًا من يكون هو بالنسبة للإنجليز ، وينسى أن الأحكام العرفية معلنة ، ولا يريد أن يعترف بأن مصر تحت الحماية البريطانية منذ عامين ونصف . . هذا الضعيف المسكين ينسى فلسفة الأقوياء . .

وطار النبأ المشئوم فى كل مكان ، وبقى الناس ينتظرون المصير المظلم . . لا شك أنه لن ينجو من النكبة أحد ، فمن لا يصيبه الدور قد يأخذون أخاه أو أباه أو أحد أقربائه ، ولهذا لن يكون هناك بيت دون أن تقام فيه مناحة . . ستكون النكبة عامة إذن ، ولن يترك قلب واحد دون أن يمسه الحزن ، ولا تبخل عين بدمعها الغالى ، ومن يدرى فقد يمس الحزن قلب العمدة نفسه ذات يوم ، وقد تفيض عيناه بالدموع الغزار . . فما أسرع تقلبات الزمان فى تلك الآونة العصيبة .

والتقى الشيخ عنبة بأحمد أفندى شلبى ، كان الشيخ ثائرًا مهتاجًا ، بينما اصطبغت ملامح «أحمد» بشحوب واضح ، يتسم بالصرامة المشوبة بالحزن ، وتمتم أحمد :

- العمدة أداة قذرة فى يد الظلم .

وهز «الشيخ عنبة» رأسه قائلاً :

- لا . . . أفندينا خان الأمانة . . السلطان حسين كامل هو الأداة القذرة . . إنه لا يعترض ، ولا يقول للإنجليز كلمة احتجاج واحدة ،

ووزراؤه على شاكلته . . ولا غرابة فى ذلك . . لأنهم (الإنجليز) هم الذين ألبسوه التاج بعد أن انتزعوه من فوق رأس عباس حلمى الثانى . . وما أكثر ما تنطبق كلمات جمال الدين الأفغانى على سلطاننا . . يقول حبيبى : «إن هذا الشيطان سل فى رئة الدولة . . » .

واحتد «أحمد» قائلاً :

- لماذا نخدع أنفسنا دائمًا؟ لماذا نلقى التبعة كلها على الإنجليز والسلطان؟

- لأنها حقيقة لا مراء فيها . .

- بل الحقيقة أن خنوعنا واستسلامنا هو الكارثة . . ألا تفهمنى يا شيخ عنبة؟؟ ماذا يحدث لو امتنع صاحب كل سلطة عن تلبية أوامر السلطان والإنجليز؟؟ تصور لو أن عمد القرى والأعيان ومأمورى المراكز، وكل المصريين فى أنحاء السلطنة قاموا بعصيان شامل . . عند ذاك يقف دولاب العمل، ويفيق الظلمة إلى رشدهم . .

فابتسم «الشيخ عنبة» فى مرارة، وقال :

- عند ذاك تعم المذابح أنحاء القطر، ويغرقون الأبرياء فى بحر من الدماء .

- ليكن . . إذ لا بد من التضحيات .

- التضحية يجب أن تكون منظومة ومدروسة يا أحمد أفندى . . .

وشرد «أحمد» بضع لحظات، ووثبت إلى ذهنه صورة واضحة لأبيه الطبيب المسالم، الذى كان يبدو فى ثيابه البيضاء النظيفة، وعمامته المنسقة الأنيقة، وابتسامته المشرقة التى لا زيف فيها، وكأنه ملاك هبط لتوه من السماء. ما مصيره الآن؟ هل ما زال حبيس السجن بالمركز يقبع فى ركن مظلم، ويفترش الأقذار، يعذبه التفكير، وتعوقه القوة الغاشمة عن الانطلاق ولقاء الناس الذين يحبهم ويحبونه، وهمس «أحمد» دون وعى وقد آلمته الذكرى:

- لسوف أنتقم يومًا من «خلاّف عبد المتجلى».. هذه الأداة القذرة.

قال «الشيخ عنبة» معاتبًا:

- لا تنسَ أن مئات بل ألوفًا مثل أبيك يحترقون بلهيب الظلم.. أبوك واحد منهم.. المأساة عامة.. ولهذا يجب أن نناقشها على صعيد مهم، وقد نجد لها حلاً جذريًا. حلاً لا يكون نتيجته إنقاذ أبيك وحده والانتقام له، بل إنقاذ الملايين المعذبة.

كان «الشيخ عنبة» كبيراً فى أفكاره.. كبيراً فى تعبيره عن المأساة الكبرى، وكان لرنة العتاب البادية فى حديثه أثر عميق فى قلب «أحمد شلبى» الذى غمغم:

- آسف.. لقد هدتنى نكبتى فى أبى حتى لم أستطع أن أفكر فى ضحية سواه.. كان بيننا بالأمس يا «شيخ عنبة». وها هو اليوم فى طريقه إلى المجهول.. إلى رحلة خطيرة لا يعلم إلا الله مداها..

ولا ندرى هل يعود أم لا . أقسم لك أن «أمى» ستموت غمًا وكمدًا . . وأنا لست أدرى كيف أستقبل العام الدراسى . . أصبحت كاليتيم .

قال «الشيخ عنبة» :

- كلنا كاليتامى . .

- لكن أبى لم يمت .

واستطرد منفعلاً : «سيحيا . . وسيحيا . . » .

وكانت الدموع تنفرط من عينيه ، لكنها تجمدت فى محاجرها ، وقد فوجئ بكوكبة من الفرسان تشق طريق القرية الرئيسى ، وتثير تيارًا عاليًا ، والعمدة يجرى أمامها يلهث وقطرات العرق تلمع فوق جبينه الضامر الأسمر . . والخفراء ينطلقون فى كل مكان ويطلقون صفاراتهم . . وفى المقدمة مأمور المركز ، وضابط إنجليزى ، والصمت الكئيب ينشر رواقه فى جنبات القرية . . ولشدة ما تعاورهم من الرعب . لم يعودوا يستشعرون الرعب ، فقد أصبح الناس أشبه بالموتى .

وشق السكون صوت جريح عالى النبرة :

- يسقط الظلم .

وكاد «الشيخ عنبة» يغمى عليه من هول المفاجأة . . إن صاحب الصوت هو «أحمد شلبى» ، وفى لمح البصر أسرع «الشيخ عنبة» وسد فم «أحمد» بكفه فى قوة . . ثم دفعه إلى أقرب باب ، وقذف به داخل البيت ، وهو يقول :

- هل جننت؟ ما جدوى ذلك؟ أنت تنتحر يا ولدى.

قال «أحمد» وهو ينشج نشيجًا عاليًا:

- لم أستطع الصمت.. انطلق صوتى على الرغم منى.. إننى أرى بعينى الجلادين الذين ساقوا أبى إلى المصير الأسود.

ونظر الضابط الإنجليزى إلى المأمور متسائلاً.. فرد عليه المأمور بلغة إنجليزية سليمة قائلاً:

- إنه هتاف الترحيب.

فافتر ثغر الضابط عن ابتسامة واسعة.. وقال ما معناه:

- إنه شىء رائع.. ما كنت أحسب أن الفلاحين على هذه الدرجة من الوعى.. حقًا.. الجميع يدركون المهمة الكبرى الملقاة على عاتقنا ونحن ندافع عن الحريات ضد ألمانيا وتركيا.. لكم شكرى وتقديرى يا حضرة المأمور. وأعتقد أن مهمتنا هنا ستكون سهلة.

فتمتم المأمور شاحب الوجه.. دون أن يستطيع إخفاء ما ساوره من حيرة وقلق:

- بالطبع.. بالطبع.

وأخذ الضابط الإنجليزى يومئ نظراته هنا وهناك، ويدقق البصر فى الوجوه التى تقبع خلف النوافذ والأبواب نصف المغلقة.. وفى الصبايا الواقفات فوق الأسطح على أكداس الأحطاب الجافة.. ويستمع إلى خوار الثيران ونهيق الحمير ونباح

الكلاب . . وكان جميع الحيوانات فى مظاهر عدائية ، ومع ذلك فقد قال الضابط ذو الوجه الأحمر :

- إن ريفكم جميل يا حضرة المأمور .

- بعض ما عندكم يا سرجنت .

- ومليء بالخيرات .

- فضلة خيركم يا سيدى الضابط .

- ونسبة الجمال هنا كبيرة . . لكنه -لست أدرى لماذا- جمال حزين .

- أجل . . أجل . . حزين يا سيدى .

- ومع ذلك يا حضرة المأمور فإن هذا الحزن يضفى على هذا الجمال إثارة وجاذبية .

- بالضبط . . بالضبط يا سيدى .

وشدت أسماعهم قهقهة عالية ، فمدوا أبصارهم يستجلون ما حدث . . فرأوا حضرة العمدة وقد تعثرت قدماه ، فسقط على الأرض . . حتى تغبرت جبته وقفطانه . . وانقذفت عصاه ومسبحته إلى بعيد . . بينما أغرق «عبد الغفار الطبال» الأعرج فى الضحك وحده . . فبادر المأمور قائلاً :

- هذا الأعرج الذى يضحك مجنون . . أقسم إنه مجنون يا سيدى الضابط .

فعلق الضابط بقوله :

- إن منظر العمدة بعوده القصير، وهو يتدحرج كالكرة بين أقدام اللاعبين . . منظر يبعث على الضحك فعلاً . . لماذا لا يضحك الناس جميعًا؟

قال المأمور متلعثمًا :

- فعلاً . . لماذا يضحكون؟

وأخذ المأمور يضحك فى هستيرية . . ثم استجمع شجاعته وقال مترددًا :

- الآن فهمت . . إنهم لا يضحكون احترامًا لجنابك .

ومضى الموكب .

كان «أحمد» فى البيت الصغير يجفف دموعه . . وإلى جواره «عنبة» . . «أحمد» وفى عينيه لمحة من جنون :

- لماذا لا ينقض أهالى القرية بفئوسهم على هذه الكوكبة من الرجال ويقضون عليها؟ لماذا؟

فسدد إليه «عنبة» نظرات صارمة، وقال :

- دع هذه الأفكار الصبيانية . . وكن رجلاً .

فتطلع «أحمد» إلى وجهه، ورأى الجد كل الجد على ملامحه، فطأطأ رأسه فى حزن . . وتمتم :

آسف . . آسف يا شيخ عنبة .

•• الفصل الثالث

حينما التأم شمل المأمور والعمدة والضابط الإنجليزى بدءوا فى تنفيذ العمل الموكول إليهم على الفور، فأخرج الضابط ورقة مطوية من جيبه، ثم نشرها وأخذ يرطن بكلمات إنجليزى والمأمور يستمع إليه فى اهتمام، وفهم العمدة منها بعد لأى أن المطلوب هو حشد عدد جديد من المتطوعين لترحيلهم إلى مناطق القتال، وكان الجميع يعرفون أن لفظ «المتطوعين» إنما يقال للتمويه والكذب؛ لأن الأفواج الأولى إنما سيقت سوقًا على الرغم منها، دون أن يكون لها حق الاعتراض أو التخلف، فلم يكونوا إذن متطوعين وإنما مسخرين لأعمال- غير حربية- كشق الطرق وسط الصحارى وعبر الجبال، ونقل المؤن والمعدات، والقيام على خدمة القوات الإنجليزية وإجابة مطالبها فى أية بقعة فى الشرق الأوسط وصحراء ليبيا وفى قبرص واليونان وسيناء وغيرها.

وقال الضابط الإنجليزى:

- نحن نريدهم من الرجال الأقوياء ذوى الجلد على الصبر والكفاح.

فابتسم المأمور قائلاً:

- بالطبع . . هذه ليست أول مرة . . ونحن نعلم الشروط والمواصفات جيدًا.

ولم يكن هذا هو كل ما يريدون، فقد أخرج الضابط الإنجليزى أمرًا بالاستيلاء على مزيد من الحمير والأغنام والمواشى وألا يترك منها إلا الهزيل أو المريض، لاحتياج القوات المحاربة إليها، ولم يفته أن يلمح إلى أن ثمن هذه الحيوانات سوف يؤدى لأصحابها فى وقت قريب، وبالطبع لم ينسَ الضابط الإنجليزى موضوع الاستيلاء على كميات معينة من القمح والشعير والذرة، ولفت نظر العمدة إلى التنظيم الجديد الخاص بزراعة الأرض ألا وهو تقليل المساحة المنزرعة قطنًا وزيادة المنزرع من الحبوب لما تتطلبه المعركة من مواد تموينية كثيرة.

ودار رأس العمدة . . «يالها من مهمة شاقة».

سيأخذون الرجال.

ويأخذون الحيوانات.

ويأخذون الحبوب.

والعمدة لا يفكر فى الأثر المترتب على سلب هذا كله، ولا يفكر فى الضائقة التى ستحل بأهل القرية، أو الجوع الذى سينشب أظفاره فيهم، أو الحزن الذى سيلون الحياة بلونه الشاحب فى كل بيت يسوقون رجاله إلى الموت . . العمدة لا يفكر فى كل هذا بقدر

ما يفكر فى الوفاء بالتزاماته التى يطلبها رجال الإدارة، وهل سيستطيع أن يستولى على الحبوب اللازمة؟؟ وهل يتمكن الفلاحون من تقديم العدد المطلوب من الحمير والأغنام والبهائم؟؟ وهل سيتقدم الشباب والرجال أم سيفرون إلى الحقول والجهات النائية، حتى لا يرموا بأنفسهم فى جحيم حرب ليست من صنع أيديهم، وليس وراءها غير الخراب والدمار والموت والاستغلال؟؟

ومال المأمور على أذن العمدة هامسًا:

- ماذا تنتظر؟

فانتفض العمدة قائلاً:

- أوامركم يا سعادة البيه؟

- حسنًا.. نريد الرجال والحيوانات والحبوب.

وهرول العمدة إلى باحة الدوار الواسعة المفروشة بالرمال النظيفة، ثم صعد أريكة عالية وجمع أمامه الخفراء وأخرج عددًا من القوائم فى كل قائمة بضعة أسماء، وأخذ يتلو الأسماء واحدًا واحدًا، والخفراء يستمعون إليه باهتمام حتى لا يفوتهم اسم من الأسماء المطلوبة، ثم وزع كل قائمة على اثنين من الخفراء ومعهم اثنان من عساكر الشرطة المسلحين، ثم أنهى العمدة أوامره قائلاً:

- أحضروا هؤلاء الرجال من تحت الأرض.. لو هرب أحدهم خلف السحاب لا بد من إحضاره، وسوقوهم إلينا مغللين بالحبال،

ومن يبدى أدنى مقاومة اضربوه على رأسه، . أو ألهبوا جسده بالسياط . . أحضروهم بأى ثمن، ومهما تكبدتم من تضحيات وإلا تعرضنا للملام والعقوبة . . أتفهمون؟؟ أنا عبد المأمور . . وليس فى أوامر الحكومة «يا أمى ارحمينى» . . إنها أوامر عسكرية يا حبيبى أنت وهو . . هيا . . انصرفوا إلى أعمالكم .

ثم نادى شيخ الخفراء، وقال :

- أحضر أكواب الشربات . . تأكد من نظافتها ومن كمية السكر اللازمة، ولا تنسَ أطباق الفاكهة، يجب أن نظهر بالمظهر اللائق يا شيخ الخفراء وإلا حقت علينا سخرية الضيوف، ولعنة البيه المأمور .

وترامت الأنباء إلى أهل القرية، وانتشرت أسماء الرجال المطلوبين لجيش العمال على كل لسان، وامتلأت الشوارع والحارات بالنسوة اللائى يولولن ويصرخن ويلطمن الخدود، أصبح فى كل بيت مأتم، ولم يكن غريبًا أن تنقسم النسوة إلى مجموعات، وكل مجموعة على رأسها امرأة تندب وتنوح وتلقى بضعة أبيات من الشعر الشعبى الحزين، والباقيات يرددن وراءها كلمات دامية حزينة . . وامتلأت القرية بعديد من المآسى، هذا شاب مطلوب للسفر وليس لأبيه غيره، وآخر لا بد أن يرحل وكان عليه أن يتزوج بعد أسبوع وعروسه تنتظره، وثالث يحمل فى عنقه مسئولية أسرة كبيرة تضم عديدًا من النساء والأطفال، وبعض الرجال لم يرَ مناصًا من التسليم، فرفع إلى السماء وجهًا تبلله الدموع وأخذ يردد «سلمت أمرى إليك يا

رب . . إننى أترك أبنائى المساكين وزوجتي المريضة فى رعايتك»، وبعضهم أقسم ألا يترك القرية إلا جثة هامدة، والبعض الآخر لجأ إلى سلاح الرشاوى، وكثيراً ما كانت تأتى بنتيجة طيبة إذا واتت الظروف.

لكن عدد الهاربين إلى الحقول والقرى المجاورة قد كثر، وأدرك العمدة ما ينطوى عليه هذا السلوك من خطر بالغ يهدده، فهرول إلى المأمور يستفتيه الرأى، فقال المأمور:

- الأوامر هى الأوامر . . كل هارب يجب أن يطارد، ومن لا يكف عن محاولات الهرب فليطلق عليه الرصاص فوراً . . وإذا جدّت بادرة من بوادر التمرد العام، فمعنى ذلك إحراق القرية عن آخرها . . فإذا أرادوا أن يمحوا أنفسهم من الدنيا فليلجئوا إلى المقاومة . . وسيرون.

قال العمدة متلعثماً:

أيقاومون وأنا موجود؟؟ مستحيل . . المسألة لا تخرج عن كونها تصرفات مجنونة لبعض الطائشين من الشباب، وسيساقون إلينا فى أقرب وقت.

فمال المأمور على أذن العمدة هامساً:

- وطعام الغداء يا عمدة؟؟

- الحمام والرومى والضأن . . مأدبة ليس لها مثيل فى مركز زفتى كله . . تأكد من هذا ياسعادة البك.

- أريد أن ترفع رأسي يا عمدة .

- خدّامك يا بك .

وانتشرت الأوامر الجديدة فى أرجاء القرية ، وكان واضحًا أن رجال الإدارة عازمون عزمًا أكيدًا على تنفيذ ما تطلبه الجهات العليا بأى ثمن ، وكان من الحماقة أن يفكر أحد فى المقاومة أو الهروب ، ولهذا رأى عقلاء الرجال أن يزجوا النصيحة إلى الشباب كى يثوبوا إلى رشدهم وليعتصموا بالحكمة ، ويجنبوا أهلهم وقريتهم شر الويلات ، وبطش السلطات ، وأن يدرءوا عنها الخسائر والمصائب ، وكفى القرية ما تعانيه من ضيق وفقر وأحزان . . وأفاقت النسوة من عويلهن ونواحهن ، وأخذن يتعلقن بأهداب أولادهن وأزواجهن ، ويتوسلن إليهم أن يستسلموا للأوامر حتى لا تصيبهم الرصاصات الطائشة ، ونجاتهم اليوم المؤقتة من الرصاص قد تكتب لهم الحياة ، وقد يكتب الله لهم السلامة ويعودون من رحلتهم الخطرة .

وبعد ساعات كان الرجال محشورين فى غرفات الدوار الداخلية ، والتى تشبه إلى حد كبير زنزانات السجون ، وانتقل الإداريون إلى عمل آخر ، ألا وهو جمع الحمير والأغنام والبهائم ، ووقف الطبيب البيطرى المنوط بهذا العمل فى حراسة الشرطة يعاين الحيوانات ، ويستبعد منها غير الصالح ، وما أقله ، ويضم إليه الصالح ، وهو الأغلب ، وسارت الحيوانات فى مظاهرة محلية بالشرطة ، والغريب أن الناس نظروا إلى تلك الحيوانات فى حسرة

وألم، وبعض الدموع انسكبت من العيون لا من أجل الخسائر المادية بفقد تلك الحيوانات التى يتقاضون عليها ثمنًا تافهًا جدًا، بل كانت الدموع تعبيرًا عن عاطفة عميقة بين الحيوانات وأصحابها.

وهمس «الشيخ عنبة»:

- لكَم يعزّ علىّ أن تفارقنا هذه العجماوات لتفقد فى عرض الصحراء.. لكم صبرت وقاست، وقدمت العون للفلاحين.

ثم توقف العمل ساعة، مدت خلالها الموائد العامرة بأشهى الأطعمة، وانكب الضابط الإنجليزى والمأمور، وكذلك بقية الرجال المصاحبين لهم، على الأكل يلتهمونه بشغف، ولم يكن يضايق الضابط الإنجليزى إلا خلو الموائد من المشروبات الروحية.. وهمس فى أذن المأمور:

- أنا مستعد لأن أدفع أى مبلغ لشراء زجاجة من الويسكى.

فابتسم المأمور ابتسامة عريضة، وقال:

- أيعتقد سيدى أن أمرًا كهذا يفوتنى؟

- ألديك بعض الخمر؟

وأجاب المأمور على تساؤله بطريقة عملية، فقد أشار بيده، وإذا بالخواجة «ينى» - صاحب الخمارة الشهيرة - يدخل ومعه عدد من الرجال يحملون الزجاجات المملوءة بالخمر والكئوس الفارغة، وقال «ينى» وهو يضع الزجاجات والكئوس أمام الضابط:

- إنها هدية متواضعة لرجال الإمبراطورية العظام . . لنشرب نخب النصر العظيم الذى سيتحقق فى القريب العاجل، ولنطرب من أجل انتصار العالم الحر .

وجرع الضابط كأسين، ثم تجشأ، وأخذ يدور بعينيه هنا وهناك، وقال ونظرات عربيدة تطل من محجريه :

- لم يبقَ إلا النساء الجميلات .

فطأطأ المأمور رأسه دون أن يجيب، وانسل العمدة خارجًا كمن وقع فى خطر داهم، وأخذ الضابط يكرر عباراته، فقال المأمور وهو يرتعد فرقًا :

- نستطيع أن نفعل أى شىء إلا الاعتداء على الأعراض . . الناس هنا فلاحون عرب متدينون . . وهذا الأمر فى غاية الحساسية .

فالتفت الضابط إلى «الخواجة ينى» قائلاً :

- أهذا هو رأيك أنت الآخر؟

- بالطبع . . هذه مسألة شائكة . . قد تهدم كل ما بنيتموه .

فمد الضابط يده، ورفع كأسًا أخرى إلى شفتيه، وقد اكفهر وجهه، وغمغم :

- لم يزل الريف المصرى متأخرًا فى أفكاره، متعفنًا فى قيمه .

ثم استطرد :

- ما هو الشرف؟ إنه نغمة سخيفة .

قال «ينى» :

– قد يفرطون فى أرواحهم . . ولا يفرطون مطلقًا فى نسائهم .

وبعد فترة من الثرثرة ومناقشة الأفكار الغربية المنحلة التى يسوقها الضابط الإنجليزى، تثاءب ثم ألقى برأسه الضخم الأشعث على المائدة . . وقال وهو يغالب النوم :

– عليكم أن تجمعوا الحبوب بأقصى سرعة . . لقد تأخرنا . . ومن لا يؤدى ما عليه من التزامات من الفلاحين دقوا عنقه . . أو خذوه إلى السجن .

وهرولت الشرطة إلى الأزقة والحوارى يتبعهم العمدة وحاملو المكاييل والموازين لجمع الكمية المطلوبة . لم يكونوا يعبثون بتوسلات النسوة وهن يرددن :

– أتأخذون قوت عيالنا؟

– لم يبقَ لدينا شىء . . أنتم تطلبون أكثر مما فى حوزتنا .

– العام طويل . . والجوع كافر .

– أخذتم الرجال والحيوانات . . فاتركوا لنا لقمة العيش .

– الراحمون يرحمهم الله .

لكن الاستيلاء على الحبوب لا يتوقف، والسياط تلهب ظهور الممتنعين، والذين لا يملكون المطلوب منهم يهرولون إلى جيرانهم يقترضون منهم، وبعضهم يسرع إلى «الخواجة ينى» يقترض منه

بالربا الفاحش، أو يرهن أرضه مصدر رزقه الوحيد . . وعجلة الظلم تدور دون رحمة . . وتسحق فى طريقها كل من يعترضها، أو يعجز عن تقديم ما عليه، ومن لم يستطع الوفاء بالتزاماته عجزاً منه . . ساقوه إلى السجون، أو ضموه إلى رهط العمال الذاهبين لخدمه جيوش الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس .

❊❊❊

أفاق الضابط الإنجليزى من نومه . . وصداع شديد يدق بمطارق قاسية فى رأسه . . ورفع عينيه ليرى امرأة متشحة بالسواد تقف أمامه، وتتكلم بلغة عربية لا يفهمها والدموع تملأ عينيها . . وحاول العمدة وبطانته جرها من أمامه ليقذفوا بها فى الشارع . . فأصر الضابط الإنجليزى على سماع شكواها واستنجد بالمأمور كى يقوم بدور المترجم بينهما . . وفهم الإنجليزى أن زوجها اسمه «عبد العزيز شلبى» . . وأنه مظلوم ومتقدم فى السن . . ومن أثرياء البلد وكبرائها . . وقد أخذوه على أثر دسيسة دنيئة ضمن الذاهبين من العمال إلى الميدان . . ولم يلفت نظر الضابط الإنجليزى إلا كون «عبد العزيز شلبى» من الأعيان الأثرياء، وكان الضابط الإنجليزى صريحًا حين قال :

– وكم يدفع ليفدى نفسه؟

– كل أملاكه يا سيدى .

– إننا نكتفى بمائتى جنيه .

وانحنت المرأة على يده تقبلها، بينما قال الضابط مخاطبًا المأمور في لهجة آمرة:

- وأين هو الآن؟

- محجوز في المركز.

- فليطلق سراحه فور أداء الفدية، ولا تنسَ أن تسلمها لي.

ثم وقف الضابط.. وخرج إلى ساحة الدار.. ورمى الواقفين بنظرة سريعة.. فلمح شابًا يقف مشدود القامة، مفتول الشاربين.. لا تبدو عليه إثارة من خوف.. فأشار بيده قائلاً:

- خذوا هذا الشاب مكان الشيخ.

وانصب الخبر على العمدة كالصاعقة.. وهتف في ذهول:

- ولكنه ابن أخي.

فلم يفهم الضابط شيئًا.. إلا أن المأمور قال للعمدة:

- كلام «السرجنت» ككلام الملوك.. لا يرد.

ووقف العمدة جامدًا كتمثال.. بينما أخذ الضابط يقول للمأمور:

- لا نريد أن نستعدي الأغنياء وأعيان البلد.. بل يجب أن نحوز رضاهم.. ونكسبهم إلى صفنا.. ومن ثم فلا يصح مطلقًا الزج بهم في مثل تلك المهام.. هذه المهام ليس لها سوى الفلاحين والفقراء.. مفهوم.

قال المأمور :

- مفهوم يا أفندم .

وجرى أحمد أفندى إلى أمه مهتاجًا وأخذ يصرخ :

- لماذا فعلت ذلك يا أمى؟ لماذا؟

- أيضيرك أن يفلت أبوك من الخطر المحقق .

- لا أعنى ذلك . . لكن ماذا يقول الناس؟

- يقولون لقد كتب الله النجاة للرجل الذى نحبه . . وعاد إلى القرية ينيرها بسماحته وعطفه وإنسانيته .

فأخذ أحمد يدق رأسه فى الحائط ويبكى، ويقول :

- أنت لا تفهمين . . أنت لا تفهمين . . الألوف يذهبون ولن يعودوا . . إن المأساة كما هى . . والحزن سيغلب القرية دائمًا . . وسنظل فى عذاب . . إن واحدًا فقط قد نجا .

فربت «الشيخ عنبة» على ظهره فى حنان . . كان يفهم أن «أحمد» قد أصبح ينظر إلى المأساة ككل لا من خلال أبيه فحسب . . بل من خلال الآلاف من المظلومين الذين يقاسون الأهوال . . ويقضون حياتهم فى ذل مقيم . . وعذاب دائم .

●●●

•• الفصل الرابع

قضى «الشيخ عنبة» فترة ليست بالقصيرة فى الجامع الأزهر أيام أن كان شابًا، وعاصر جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده، وشارك فى انتفاضة الشعب المصرى أيام ثورة عرابى، وكان يحرص على مجالسه الأفغانى والاستماع إليه، وتدوين ما يمكن من كلماته، والحقيقة أن «الشيخ عنبة» عاد إلى القرية بعد تشتيت العرابيين.. ودخول الإنجليز.. وكانت حصيلته من الوعى السياسى أكثر مما حصله من العلوم الشرعية، كانت القضية الوطنية تشغل الأذهان.. والأحداث العالمية الكبرى تجذب إليها كل صاحب عقل مستنير.. وكان لا يفتأ يفكر فى أمر هؤلاء الإنجليز الذين دخلوا مصر بحجة حماية الخديوى من غضبة الشعب، ومصدر عجبه هو أن الإنجليز يحمون فردًا ويدوسون على إرادة أمة بأسرها، هل هذه هى الحرية التى ينادى بها الأوربيون المتمدينون؟ وتمر الأيام.. وتشتعل نيران الحرب العالمية الأولى(١٩١٤) فإذا بالإنجليز الذين أعلنوا بالأمس أنهم باقون فى مصر مؤقتًا حتى ترسخ أقدام الخديوى، يعودون ليعلنوا أنهم باقون لحماية مصر من

غدر الترك والألمان . . وحماية تراث الإنسانية من الحريات العامة والعدالة والإخاء، وعدم الاستغلال، وينتهزون فرصة الحرب فيستبعدون خديوى مصر عباس حلمى الثانى، ويجودون بالتاج على السلطان حسين كامل . . ثم يفرضون الحماية البريطانية والأحكام العسكرية على مصر، ثم تراقب الصحف وتمنع الاجتماعات . . ويكتم كل صوت ينادى بحق مصر. ويستذل الأحرار . . وتعطل الحياة الديمقراطية ويصبح قائد القوات البريطانية أو المندوب السامى هو الحاكم الفعلى فى البلاد . . وهكذا اكتسح مصر طوفان المظالم وأصبحت مجرد ضيعة للإنجليز تورد لهم ما يحتاجون إليه من مال ومؤن . . يأخذونه بثمن بخس أو بلا ثمن . . ويقع العبء الأكبر من هذه التضحيات الفادحة على عاتق الشعب الفقير الكادح . . ومن يفكر فى الاعتراض على الإرادة الإنجليزية، فالسياط والسجون والإعدام هى الرد الحاسم .

وكان «الشيخ عنبة» معتل الصحة . . لكنه كان ثاقب النظر . . يقظ الفكر . . يتابع الأحداث بقلب ثائر . . ويصرخ محتجًا كلما رأى حيفًا . . أو وقعت عيناه على وضع اجتماعى أو سياسى مقلوب .

وما أكثر ما اصطدم بالشيخ «خلاّف عبد المتجلى» عمدة القرية . . كان العمدة يؤمن إيمانًا راسخًا أن الفقراء خلقوا للعمل والكدح ولخدمة الأغنياء . . وكان يرى أن الفلاح الذى يعترض على أمر السلطات . . أو يحاول العصيان مجرد مارق مجنون لا بد من تأديبه حتى يفيق إلى رشده، ويلجأ إلى الطريق المرسوم .

العمدة عبد المأمور . . والمأمور عبد المدير . . والمدير عبد السلطان، وهم جميعًا عبيد للسلطة الإنجليزية . . وهى الحاكم الفعلى . . ولهذا رأى العمدة تبعًا لذلك أن أهالى القرية عبيد له . . تسلسل منطقى - منحرف - اقتنع به العمدة . . وسار على منواله . . فلم يكن غريبًا أن يستغل الأيدى العاملة- الفلاحين والخفراء على حد سواء- لزراعة أرضه وريها وجمع محصولها .

وكان «الشيخ عنبة» يرى فى هذه التصرفات انحرافًا خطرًا . . واستغلالاً قاسيًا لجهد الجماهير، وإرسال لقواعد الظلم والفساد . . وإهدار لكل القيم الفاضلة التى أكدها الدين والمثل العليا فى كل الأديان والفلسفات .

ولم يكن «الشيخ عنبة» بالرجل الجبان الذى يدارى حنقه، ويستسلم للأمر الواقع، بل كان يحرص دائمًا على توجيه سهام نقده إلى العمدة وأحزابه من الموسرين . . ولا يعتلى منبر المسجد إلا ويحدث الفلاحين عن الإنسان الحر، وعن قولة عمر رضى الله عنه : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا» . ويحدثهم عن صفات المؤمن الحق . . وعن وجوب المساواة والعدالة والمحبة وسيطرتها على علاقات بنى البشر .

ولم يزل هذا دأبه . . حتى أدرك العمدة الخطر الكامن فى كلماته . . لم يفكر فى مدى صحة آرائه بقدر ما كان يفكر فى

الخسائر التى ستعود عليه من جراء تشرب الفلاحين لهذه المبادئ . .
وأخيراً قرر استدعاء «الشيخ عنبة» . . واختلى به، وقال:

- أنت تعرف يا شيخ عنبة . . من أنا .

- أعرف أنك خلاّف عبد المتجلى رجل مثلنا .

- لكنى عمدة البلد .

- المنصب تكليف لا تشريف .

فلم يفهم العمدة ماذا قصد، لهذا قال:

- لا تكلمنى بالنحو . . كن واضحًا .

رفع إليه «عنبة» وجهًا صارمًا، وهتف:

- لست إلهًا يا حضرة العمدة .

- يمكننى الإيذاء والانتقام من أى معارض .

- ولم لا تكون مجلبة للنفع والخير؟

- لأنك «يا عنبة» تعترض سلطاتى .

فرفع «عنبة» سبابته اليمنى إلى أعلى، وكأنه واقف فوق منبر، وقال:

- بالحق .

قال العمدة فى ضيق:

- وأنا أعرف ما هو الحق .

- وأنا أعرفه .

- وإذا اختلفنا فى تفسيره «يا عنبة»؟ يجب أن يكون رأيى هو الأرجح . . رأى العمدة فوق كل اعتبار .

فلوّح «عنبة» بيده محتجًا، وقال :

- هذا منطق أعوج .

- كيف يا عنبة؟

- إذا اختلفنا احتكمنا إلى كلمات الله .

وخيم الصمت .

وتذكر «عنبة» كلمات خالدة لجمال الدين الأفغانى .

كان قلبه يدق بشدة، ولحيته ترتعش، وأخذ يردد :

- يقول حبيبى حينما التقى بقيصر روسيا : أعتقد يا جلالة القيصر . . أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعداء يترقبون له الفرص .

فصرخ العمدة محتجًا :

- حبيبك لا يفهم شيئًا .

قال «عنبة» وقد تبللت أهدابه بالدموع :

- أنت لا تعرف حبيبى يا حضرة العمدة .

- أعرف أنك صلب الرأى مشاغب .

فلم يعر «عنبة» كلماته التفاتًا ومضى يقول :

- حبيبى صوت من عند الله . . كان يجلس فى الحلقة وحوله أسيادى وأسيادك ، ويتكلم عن الحرية . . والحب . . والحياة . . كأن نور الله ينطلق مع كلماته الجلوة . . وكانت عيناه تشعان إيمانًا عميقًا . . وتملأ نفوسنا بالثقة الرائعة . . كان لا يخاف فى الحق لومة لائم . . استقبل النفى والتشريد والاضطهاد بجنان ثابت . . لم يكن يخاف الموت ولا العالم بأسره . . حبيبى عاش فاتحًا قلبه للناس . . وعاش قلقًا على مصير البشر ، وظل ينتقل من مكان إلى مكان داعيًا للحق والحرية والكرامة . . بندائه الخالد . . نداء الشرفاء الأحرار فى عالم كله فساد وانهيار . . أتقول يا حضرة العمدة أن حبيبى لا يفهم شيئًا؟ بئس ما قلت أيها الرجل الشرير .

انقلبت سحنة العمدة ، واتقدت عيناه شررًا . . وهب واقفًا وصرخ :

- اخرج من هنا .

قال «الشيخ عنبة» فى هدوء :

- سأخرج . . لكن كلماتى ستظل تطن فى أذنيك . . لأنها كلمات حبيبى . . وكلمات حبيبى لم . . ولن يذهب صداها أدراج الرياح .

فصرخ العمدة مرة ثانية :

- اخرج فورًا .

- يؤسفنى أن أراك تعادى أهل قريتك . . وتقف فى صف أعدائهم . . ولا تفكر إلا فى ذاتك . . لماذا لا تحبهم ويحبونك؟ تأكد أن ما يدره عليك سلوك الخير أضعاف أضعاف ما يجلبه لك طريق القسوة والتهديد والإيذاء .

وما كان فى استطاعة العمدة أن يعترف بالهزيمة . . ويرجع إلى الحق . . فهو - كعمدة - لا بد أن يكون على صواب . . وتكون كلمته هى العليا . . ولما أعياه منطقه . . وعجزه عن قهر «الشيخ عنبة» قال :

- كان فى إمكانى أن أقذف بك مع جيش العمال الذاهب إلى صحراء سيناء . . وعندئذ لا تعود إلى هنا مطلقًا .

فتربع «الشيخ عنبة» وترنم بصوت جريح :

- بسم الله الرحمن الرحيم . . ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء : ٧٨] . . صدق الله العظيم .

صاح العمدة :

- كفى .

وقال عنبة :

- ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب .

- قلت كفى ... كفى .

- وإرادة الله فوق كل إرادة . . لقد حاولت أن ترمى «الشيخ عبد العزيز شلبى» إلى لهيب الصحراء فى سيناء . . فأنقذه الله وأخذوا ابن أخيك بدلاً منه . . الله كبير .

تراخى العمدة وارتمى فوق مقعده، وارتجفت شفتاه، وهمس بصوت واهن ضعيف :

- ارحمنى يا عنبة .

- كيف أرحمك وأنت لا ترحم . . لقد شربوا الخمر فى بيتك، وهو رجس من عمل الشيطان . . ونفّذت كل ما طلبته السلطات منك . . ولم تدافع بكلمة واحدة عن أهل بلدك . . وكنت تجرى أمام موكب الظالمين كعبد ذليل . . حتى تعثرت قدماك، وتمرغت فى التراب يا ابن الأكابر . . أجل الأكابر .

قال العمدة وقد انهمرت دموعه :

- أرجوك . . اتركنى .

- لن أتركك حتى تعود إلينا .

- وكيف أعود يا عنبة؟

- لتنسَ ما فات . . ولتغير سلوكك . . اذهب إلى المحزونين فى بيوتهم وقل لهم كلمة عزاء . . واسهم فى مصائبهم . . وقف إلى جوارهم منذ اليوم وإذا لزم الأمر فلتضحِّ بمنصبك فهو شىء

بسيط . . وعش لهم . . لله . . ما بقى من عمرك . . كن إنسانًا يا حضرة العمدة .

وبكى العمدة كما لم يبكَ طول حياته .

واحتضن «عنبة» بين ذراعيه .

وظلاّ متشبثين بضع لحظات .

وقال بنبرات يخالطها البكاء :

- فليغفر لنا الله .

قال عنبة :

- ورحمته وسعت كل شىء .

●●●

•• الفصل الخامس

حقًا، قد يولد الإنسان من مرة، أو على الأقل هذا هو شعور «عبد العزيز شلبى» حينما أخبروه أنه عائد إلى قريته، ولن يلحق بجيش العمال، كان المسكين يقاسى قلقًا نفسيًا بالغًا وهو يجلس فى محبسه منتظرًا ساعة الترحيل.. أو ساعة الخلاص.. ظل طوال ليله ونهاره يقرأ القرآن.. ويسبح باسم الله.. ويضرع إليه مخلصًا تائبًا أن يخلصه من هذا المأزق الذى أوقعه فيه سوء الطالع.. ولم يكف لسانه عن التوسل والابتهال إلى الله.. كانت فيه طيبة الريفى.. وثقة المؤمن.. فأخذ ينتظر المعجزة التى تطلق سراحه.. واستجاب الله لدعائه وجاءت المعجزة على يد زوجه.. وفى الوقت الذى غادر فيه محبسه.. وقعت عيناه على أفواج المقبوض عليهم.. أولئك الذين ساقتهم السلطات من شتى أنحاء المركز من القرى والكفور والعزب.. كان مشهدًا يدمى القلوب، ويبعث على الحسرة والأسى.. وأخذ «عبد العزيز شلبى» يتطلع إلى وجوههم الشاحبة.. ونظراتهم الزائغة.. وخطواتهم الواهنة.. وموكبهم الحزين.. ونفسه تتمزق ألمًا.. وانسابت من أعماقه

الشفافة الملتاعة ضراعة صامتة: «يا رب.. ارحم هؤلاء المساكين» ثم أغمض عينيه.. وتسلل جوار سور المبنى الكبير للمركز.. وبينما هو يسير متعثرًا كتائه ضل طريقه طويلاً، جاءته أصوات محزونة يعرفها حق المعرفة:

- يا شيخ عبد العزيز.. وصيتك الأولاد.

- يا شيخ عبد العزيز.. دعواتك.

- يا شيخ عبد العزيز.. قل لهم لا تبكوا من أجلنا.

- يا شيخ عبد العزيز.. مع السلامة.

ودارت الأرض بالرجل الطليق.. وانسكبت دموعه على الرغم منه.. وأخذ ينظر إليهم عبر سحابة صنعتها دموعه.. كانوا يتحركون واهنى القوى.. يشيع قافلتهم البائسة لحن جنائزى دامٍ، ثم رفع إليهم يدًا راعشة.. وأخذ يلوح قائلاً:

- مع السلامة... ربنا معكم.

***

ويلغ عبد العزيز داره بعد بضع ساعات.. واستقبل زوجه الباسمة فى فتور.. واحتضن وحيده صامتًا.. دون أن يتبادلا كلمة واحدة.. وألقى بنفسه على أريكة خشبية وهو يلهث.. وتمتمت زوجته:

- هذا يوم المنى.

فنظر إليها . . وكان فى نظراته عتاب . . وعزوف عن كل مظاهر البهجة . . فأدركت أن زوجها لا يستجيب لفرحتها الغامرة . . فغيرت مجرى الحديث، وقالت :

- لا شك أنك جائع .

قال فى جفاف :

- ما بى رغبة فى الطعام .

وحيرها أمره . . ترى هل أخطات حينما تقدمت برجائها للضابط الإنجليزى؟ وهل خانها التوفيق عندما حصلت على المبلغ المطلوب وقدمته فدية لزوجها؟ ما هذا الذى تراه؟ كانت تعتقد أن عودة زوجها أكبر عيد . . وأنها مناسبة من أعظم المناسبات . . بل إنها فكرت فى إقامة حفل كبير يشارك فيه أصحاب الطبول والمزامير والأصوات الجميلة . . وتمد فيه الموائد للفقراء . . وتقوم الأذكار عند أضرحة الأولياء . . فإذا بها ترى الأمر على غير ما توقعت . . ها هو زوجها صامت حزين . . وكأنه فى مأتم . . وها هو ولدهما «أحمد» . . لا يختلف عن أبيه فى أساه وصمته . . هى تعلم أن بيوت القرية قد أصيبت فى رجالها ولقمة عيشها، ولكن ليس معنى ذلك أن يموت الفرح فى كل قلب، وألا يطرب أحد لمناسبة سعيدة كهذه .

وطرق «الشيخ عنبة» الباب .

وافتر ثغره عن ابتسامة شاحبة مدموغة بطابع المجاملة . . وقال :

- حمداً لله على سلامتك . . إن مجيئك أثلج قلوب الكثيرين .

قال الشيخ عبد العزيز فى فتور:

- تفضل.

- إن نجاة فرد مثلك يعتبر كسبًا للقرية لا شك..

- إن خسائر القرية لا تعوض.

- وماذا نفعل؟

- الصبر يا شيخ «عنبة».

تنهد «الشيخ عنبة» قائلاً:

- إلى متى؟

- إلى أن يشاء الله.

وتدخل «أحمد» قائلاً:

- الاستسلام موت.. والصبر فى بعض الأحيان ذلة وضعف.

وأخذ «عنبة» يدندن بنبرات مكتئبة منغومة:

- ياما صبر أيوب على حكم الزمان!!

وكان مجيء «عنبة» إلى بيت «الشيخ عبد العزيز» بداية لتقاطر الأهالى نساء ورجالاً وأطفالاً من كل حدب.. وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى غصت الدار بهم.. وامتلأت الرحبة الواسعة.. وكذلك المصاطب أمام البيت بالأهالى، ولم تزد كلمات التحية عن «حمداً لله على سلامتك» ولم يكن رد الشيخ يخرج «الله

يسلمكم»، ومن آن لآخر ينطلق صوت مؤثر يبعث الرجفة فى الأجساد والقلوب:

- هل رأيتهم يا شيخ عبد العزيز؟ . . وكيف أحوالهم؟

وكان السائل يقصد بالطبع أولئك الرجال الذين انتزعوهم من بين ذراعى القرية وقلبها النابض. . وساقوهم إلى بعيد، وكان هذا التساؤل ينصب على الجميع كصاعقة، فيستسلمون للصمت والألم والدموع.

وظهر العمدة فجأة، ووقف بعوده القصير النحيل على عتبة الباب ثم ألقى السلام. . ولم يجمد «عبد العزيز شلبى» فى مكانه. . بل هبّ واقفًا يرد السلام، ويستقبل العمدة فى بيته. . الجميع يعرفون مَنْ الذى فعلها وأراد أن يرمى «عبد العزيز» إلى بعيد، والجميع يعرفون أن الله انتقم منه حين نجاه وأصاب العمدة فى ابن أخيه، والجميع يعرفون أيضًا أن العمدة كانت له اليد الطولى فى اختيار الأسماء. . وفرض الإتاوات، وأنه لم يكن عادلاً حتى فى ظلمه. . هم لا يعرفونه منذ أمس فحسب. . بل يعرفونه منذ زمن طويل. . هو عبد المأمور، وبالتالى عبد لأهوائه ونزواته. ودائمًا كان يبرر انحرافه، ويلتمس له الأسباب. . حتى ملّ الناس ذلك فأصبحوا لا يسألونه لماذا فعل. . وسادت الجميع موجة من الدهشة حينما رأو «عنبة» بالذات يستقبل العمدة بوجه باش. . ويفسح له مكانًا رئيسيًا. . ويرحب به فى حرارة. . وصاح «عبد العزيز شلبى» وهو يغالب انفعالاته:

- قهوة يا حضرة العمدة؟

وعاد الصمت من جديد وصورة مأتم كبير ترتسم على رءوس الجالسين . . هى فى الحقيقة فرحة بعودة من أتى ، ممزوجة بحزن على من ذهب . . خليط . . كذلك الخليط الذى ينتج عن مزج الملح بالسكر ، فطعمه إذن يثير التقزز والغثيان .

وتوترت الأعصاب حينما فوجئوا بحضرة العمدة يقول :

- إخوانى .

أعرف أنكم تكرهونى ، وأنا أعذركم فى ذلك ، فقد أسأت إليكم كثيراً . . كل بنى آدم خطاء وأحب الخطائين إلى الله التوابون . . الظلم مرض يا إخوانى ، كنت تحت تأثير شعور غريب أوغل بى فى الإساءة إليكم . . لكن الله قد وهبنى الشفاء . . على يدى طبيب ماهر طبيب . . هذا الطبيب أنتم تعرفونه «الشيخ عنبة» . (وأشار بيده النحيلة إلى عنبة ، الذى طأطأ رأسه خجلاً وتمتم «العفو» وتطلعت العيون إلى «عنبة» . . إلى أهدابه المسبلة ، ورأسه المنكسة ، ولحيته الوقورة المهذبة . . ورداثه الرخيص النظيف) . واستطرد العمدة قائلاً . . وقد غشيته موجة من الانفعال :

- أنا منكم وأنتم منى . . كلنا قلب واحد ويد واحدة ، إننى أرى فى عيونكم الشك . . تظنون أنى أخدعكم كما خدعتكم بالأمس . . ولعل حسنى النية فيكم . . يتهمون كلماتى ويعتبرونها مجرد مواساة إبان الكارثة التى لحقت بشباب قريتنا وأقواتها . . لا . . أقسم إنى

صادق فى توبتى وندمى على ما فات . . إن ما حدث لى يعتبر انقلابًا غير متوقع . . أنا نفسى لم أكن أتخيل أن أتغير هذا التغير الشامل بين عشية وضحاها . . لكن قوة الله فوق كل قدرة . . كل إنسان منا يمر بلحظة نادرة . . لحظة اكتشاف . . يرى فى ضوئها حقيقة نفسه، ولعلكم سمعتم «الشيخ عنبة» يردد فى خطبه ودروسه بالمسجد الآية الكريمة : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص : ٥٦] لا أريد أن أقدم الآن الدليل على ندمى الشديد . . ولكنى سأترك هذا الأمر وأدع الأيام القادمة تشهد لى أو علىَّ . .

وأفاق الناس المذهولون على صوت «أحمد أفندى شلبى» يقول :

- أول أمس غدرت بأبى . . واليوم . .

لم يتضايق العمدة، وإنما ابتسم ابتسامة صافية، وتمتم :

- القاتل يهوى على فريسته فى شراسة، ويمزقها شر ممزق . . ثم . . ثم يرتمى فوقها نادمًا منتحبًا . . ألا يحدث هذا كثيرًا؟

وانبرى «الشيخ عبد العزيز شلبى» قائلاً :

- أنا لا أحمل فى قلبى غلاً لأحد، وما حدث لى فهو بإرادة الله . . وليس من المكتوب علينا هروب . . وإيمانى بالله لا يتزعزع، وما دام الأمر كذلك . . فهأنذا أمد يدى لحضرة العمدة مصافحًا فى إخلاص وحب . . معاهدًا إياه على الإخلاص والصفح . .

وتبعته عشرات الأيدى مصافحة العمدة . . الأيدى الخشنة

العجفاء التى لا تعرف سوى الصبر والجلد والسلام . . كانت النفوس طافحة بالألم . . لكن ما حدث من حضرة العمدة قد لامس القلوب المكلومة وكأنه نسمة رقيقة رطبة .

وصاح صوت فى ركن من أركان الصالة :

- متى يعودون؟

وقال آخر :

- رجالنا الغرباء متى يعودون؟

وأجاب العمدة إجابة مفحمة حين قال :

- عندما يعود ابن أخى .

وكان يقصد من وراء ذلك أن المصاب - مصابه ومصابهم - عام، وأن القلق على الغائبين يستقر فى قلب العمدة وقلوبهم أيضًا . . وأن حزنه عليهم . . ونقمته على رجال السلطة . . لا يشقى بهما إنسان دون إنسان . . وجلس «الشيخ عنبة» يحدثهم عن الجهاد الأكبر -جهاد النفس- ويكلمهم عن الرسول إبان محنته فى فجر الدعوة الإسلامية، وما لاقاه هو وأصحابه من نفى وتشريد واضطهاد ويستشهد بالآية الكريمة : ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٥]، ولم ينسَ فى هذا الموقف العصيب أن يتذكر حبيبه «جمال الدين الأفغانى» . . فاختتم كلامه قائلاً :

- يقول حبيبى : بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة . .

•• الفصل السادس

حلّ موسم جنى القطن، وهو موسم الرزق والبهجة بالنسبة للفلاحين، ففيه تزف العرائس إلى أزواجهن، ويلبس الأطفال الجديد من الثياب، ويقبل الفلاحون على شراء اللحم والفاكهة وخاصة البلح والجوافة، وترد الأموال المقترضة إلى أصحابها، وتنتعش الحياة الاقتصادية، وتروج التجارة، وبالاختصار يجنى الفلاح ثمار تعبه وسهره طول العام، ويؤدى إيجار الأرض للمالكين. . فلم يكن غريبًا أن يكون موسم جنى القطن أسعد الأيام وأكثرها بركة ومتعة.

لكن الموسم هذا العام كان على النقيض من ذلك مدعاة للألم والضيق، على الرغم من الوفرة النسبية للمحصول. . فمساحة الأرض المنزرعة كانت صغيرة طبقًا للأوامر العسكرية حيث القوات المحاربة فى حاجة إلى الحبوب أكثر من حاجتها إلى القطن. . أضف إلى ذلك الهبوط الشنيع فى أسعار القطن. . فقد سدت فى وجهه الأسواق العالمية بسبب الحرب. . أو الإنجليز -بمعنى أصح- هم الذين سدوا فى وجهه كل الطرق. . فوضعوا للأسعار حدًا أعلى لا تتخطاه ولم يضعوا لها حدًا أدنى حتى تهبط كيفما شاءوا. . فضلاً

عن أنهم احتكروا التصدير لمصانعهم وأصبح الثمن التافه الذى لا اعتراض عليه هو الثمن الرسمى . . وهكذا هبط دخل الفلاح من القطن إلى أقل من العُشر . . وخسر التسعة أعشار ظلمًا وبهتانًا . .

وهكذا بقيت العرائش حائرات .

وظل الأطفال دون ثياب جديدة .

وارتفعت أسعار اللحوم لشدة حاجة القوات المحاربة إليها . . وتحوّل موسم الخير والبركات إلى حرمان وفقر وضياع . . كما أفلس عدد ضخم من تجار القطن . . وفقدوا كل ثرواتهم .

وكانت هذه هى الفرصة الذهبية للخواجة «ينى» ورفاقه . . كانت «الخمارة» التى يديرها الخواجة تقع فى أوسع وأهم شارع من شوارع القرية . . ولم يكن اسم «الخمارة» يعنى أنها لا تحوى سوى الخمر والسكارى . . بل كانت متجرًا كبيرًا فيه كل أنواع البقالة . . وفيه قسم خاص للأقمشة وآخر للأخشاب . . وغيرها . . وضحايا الخواجة «ينى» فى القرية يعدون بالعشرات . . وهم ضحايا تعاطى المسكرات . . وضحايا التعامل بالربا الفاحش .

الآن وقد جاء موسم القطن . . كان على الخواجة أن يفحص أوراقه ويراجع حساباته . . حتى يحصى ماله عند العملاء . . كان الخواجة سعيدًا ؛ لأنه واثق تمام الثقة أن أغلبهم سيعجز عن تأدية ما عليه . . وفى هذه الحالة يستطيع أن يملى شروطه . . ويحدد نسبة الربا الجديدة . . أو يستولى على الأرض المنزرعة والعقارات .

والخـواجـة «ينى» رجل قـد ناهز الأربعـين من عـمـره . . هادئ الأعصاب لدرجة مثيرة . . باسم دائمًا لكنها ابتسامة خبيثة من النوع الذى يبـعث على الضـيق . . شـديد سـواد القلب كـمـا يقـول الفلاحـون . . يشبه إلى حد كبير فص القطن الأبيض بداخله بذرة سـوداء . . ويعتـقـد الخـواجـة أن التجـارة لا تعـرف الرحـمـة ولا المجـامـلات خـذ وهات . . هذا هو دستـوره . . له مـجـمـوعـة من الأصدقاء من أعيان البلد . . يحترمهم ويبش فى وجوههم . . ويظل الود قائمًا ما داموا يملكون القرش . . فإذا خلت جيوبهم فلا يعرفهم إلا من خـلال الطريقـة «الحكيـمـة» التى يتـعـامل بها مع غيـرهـم فـلا يعطيهم إلا بناء على أوراق مكتوبة . . وبنسبة ربح مركبة محددة .

وللخواجة «ينى» وكيل أعـمال يشرف على أرضه التى يملكها والتى استـولى عليـهـا من الفـلاحـين بأثمـان زهيـدة . . فى ظروف مريبة . . حقًا إن الطيور على أشكالها تقع . . إذ إن وكيل الخواجة ويدعى الحاج إبراهيم -يتفق مع رئيسه فى كثير من الصفات وأهمها برود الأعصاب وعدم الاعتراف بالرحمة فى المعاملات التجارية والمادية . . ولعله هو اليد اليمنى للخواجة . . لأنه من أسرة كبيرة ذات بطش ومهابة .

وظل الخـواجـة يفـحـص أوراقـه . . ثم توقف عند اسم «أبو المعـاطى الشـافـعى» . . هو الصيـد الثـمـين هذا اليـوم . . لا بد من استدعائه وقد انتهى جنى القطن .

جـاء «أبو المعـاطى الشـافـعى» . . رجل يزحف نحـو الرابعـة

والخمسين مكتنز الجسم . . ضاحك دائمًا ، تلمع سن ذهبية فى مقدم فمه . . أبيض الوجه مشرب بحمرة واضحة . . يغلب الشعر الأسود شعره الأبيض على فوديه ولحيته . . ويضع على رأسه عمامة لا لعلمه . . وإنما لمكانته الاجتماعية المرموقة .

استقبله الخواجة لأول مرة فى حياته استقبالاً رسميًا جافًا ، لم يستجب لنكاته ومداعباته ، وقاطعه الخواجة قائلاً :

- يا حبيبى الديون بلغت خمسمائة جنيه . . وقد تم جنى القطن . . والعارف لا يعرف يا حبيبى .

فرد «أبو المعاطى» فى استهتار :

- المسألة أخوية يا خواجة .

- لا يا حبيبى . . المسألة معاملات . . لو كانت أخوية لخرب بيتى .

تضايق «أبو المعاطى» ، واشتد احمرار وجهه وصرخ :

- بيتك؟ لقد أتيت قريتنا شحاذًا بلا بيت . . كنت تبيع الخيط والإبر والفلفل الأسود والأمشاط والمناديل للنساء . . ومن أنت أيها النذل حتى نحرص على أخوتك .

قال الخواجة دون أدنى انفعال :

- لا يهمنى كل ما تقوله . . ولن يغير من الحقيقة فى شىء . . لا أطلب منك سوى حقى . . هذا شىء مشروع ، ولا يصح أن يثيرك . . يا حبيبى .

قال «أبو المعاطى» وهو يدق المنضدة بقبضته المتشنجة:

- مائة تتحول فى بحر عامين إلى خمسمائة.

- لا داعى للخروج عن الموضوع.. أنا لا أذكر إلا «الكمبيالة»، وفيها خمسمائة جنيه.. ولك أن تختار: الدفع.. أو بيع جزء من أرضك.. وإلا فالقضاء العادل يفصل بينى وبينك.

وضاقت الدنيا فى عينى «أبى المعاطى الشافعى»، وفار الدم فى رأسه، وتطلع إلى زجاجات الويسكى القائمة التى تتراص على الأرفف العالية، وتذكر كيف استدرجه الخواجة إلى شرب الكأس الأولى التى قدمها له الخواجة كانت مجانًا.. لم يدفع فيها مليمًا واحدًا.. وها هو اليوم يدفع الثمن أضعافًا مضاعفة.. وبعدها أخذ يتسلى بكأس.. كأس واحدة، وثمنها بسيط لن يتجاوز بضعة قروش زهيدة.. ثم تحول الكأس إلى اثنتين.. إلى ثلاث.. فأتى على مدخراته.. وبعد ذلك أخذ يقترض من الخواجة.. لم يعد يشترى كأسًا.. بل زجاجة كاملة.. يفرح بها فرحة الطفل بلعبة جديدة.. وقد آن وقت الحساب.. وأدرك «أبو المعاطى» أن الشدة ليست فى محلها فى هذا الوقت.. يجب أن يسترضى الخواجة.. حتى يمهله فترة أخرى.

- آسف يا خواجة.

- تعلمت ألا أحمل حقدًا لأحد.

- سلوك طيب منك.

- والمبلغ يا حبيبى؟

- بحق العيش والملح و. . والخمر تمهلنى بضعة شهور.

- آسف يا حبيبى.

- والحل؟

- واحد من ثلاثة. . شرحتها كلها لك.

- أنت رجل منا. . وقدسية الجيرة الطويلة تفرض عليك بعض الواجبات.

- دع هذه الخرافات. . لو استمعت إلى كلامك لأغلقت متجرى ولأكلت التراب.

وأصبح جليًا أن الخواجة مصر على موقفه، وأنه لا فائدة من التوسلات التى يسوقها «أبو المعاطى». . الدفع أو المحكمة. . أو بيع الأرض. . «أبو المعاطى» لا يملك سوى عشرة أفدنة. . والأرض الآن برخص التراب. . والقطن قليل ويخس الثمن لا بد إذن من حل حاسم. . ولم يطق «أبو المعاطى» البقاء أكثر من ذلك. . فرأسه يكاد ينفجر. . وعيناه تتوقدان وتطلقان الشرر. . والزجاجات الماكرة القاتمة اللون. . تقف راسخة ساخرة فوق الأرفف. . والخواجة يجلس قبالته هادئًا باردًا بوجهه الشمعى الذى لا يرق ولا يلين. . وصرخ «أبو المعاطى»، وهو ينتزع نفسه خارجًا:

- أنت مستغل.

قال الخواجة :

- مستغل لأنى مددت يدى لك بالعون فى وقت شدتك؟

- أجل عاونتنى بسمومك .

- سأعطيك فرصة أسبوعًا . . أسبوعًا واحدًا لا غير .

وتمتم «أبو المعاطى» دون أن يسمعه الخواجة :

- يكفى أسبوع . . سأجد الحل حتمًا ، وفى أقرب فرصة .

***

خرج «أبو المعاطى» وعاد الخواجة إلى أوراقه ومستنداته ، ووقعت عينه على الأوراق الخاصة «بأم الخير» ، إنها سيدة طيبة ، لم تلجأ للخواجة حبًا فى الخمر ، بل كان ولدها مريضًا بداء الكبد والاستسقاء . . وظل يعالج منه عامًا ونصف عام دون جدوى . . واقترضت من الخواجة . . لم تستدن منه أكثر من ثلاثين جنيهًا لكن المتجمد عليها الآن يبلغ التسعين . . وهى لا تملك إلا فدانين . . وابنها مات . . مات قبل موسم جنى القطن بشهر واحد . . والخواجة لا دخل له بالذين يمرضون أو يموتون ، لا يهتم إلا بالأوراق والأرقام التى فيها تاريخ الدفع . . وجاءت «أم الخير» بعد أن استدعاها الخواجة تبكى بحرقة وتقول :

- مات ولدى يا خواجة .

- كل من عليها فانٍ يا ست . . ألا يقول قرآنكم ذلك؟

- أطال الله عمرك .

-إنى فى ضائقة والمبلغ مستحق الدفع .

- إن محصول نصف فدان من القطن لا يكفى للسداد .

- وما حيلتى؟

- ألا تصبر؟

- الدفع . . أو المحكمة . . أو بيع الأرض . . وأنا مستعد أن أشترى الفدانين بمائة جنيه . . سأعطيك عشرة بالإضافة إلى التسعين التى فى ذمتك . . هيه؟ ماذا قلت؟

ولم تجب بغير الدموع .

قال الخواجة :

- الدموع لا تسدد ديونًا . . تكلمى .

- أوامرك يا سيدى .

- اتفقنا . . أنت امرأة طيبة .

ثم أخذت تناجى نفسها :

- مات ولدى . . ضاعت الأرض . . لماذا أعيش يا رب؟

وفى لحظات كان «الحاج إبراهيم» قد أعد وثيقة البيع ، وأخرجت «أم الخير» خاتمها ، وسلمته ذاهلة ثم انصرفت بعد لحظات وفى جيبها عشرة جنيهات .

وظل الخواجة طوال اليوم يستدعى عملاءه ويملى إرادته، ويستولى على ضروريات الحياة من المستدينين، لا ينبض قلبه بذرة من شفقة، ولا تستجيب روحه لكلمة ضراعة، ووكيله «الحاج إبراهيم» يصرخ فى الفلاحين ويتوعدهم، وينتزع منهم التنازلات طوعًا أو كرهًا، ونسى الناس أو كادوا مأساة الأمس القريب، وترحيل أبنائهم إلى الديار النائية . . ونسوا حيواناتهم وأقواتهم التى استولت عليها السلطات، وأخذوا يتحدثون عن الخواجة «ينى» وقسوته المفرطة، واستغلاله المنقطع النظير.

وأخذ «عنبة» يستمع إلى تفاصيل المأساة الجديدة ويتمتم: طالما حذرتكم . . لكنكم لا تستمعون . . شربتم الخمر . . واقترضتم بالربا . . وعصيتم الله . . فتكاثرت عليكم النكبات.

فرد أحد الفلاحين:

- كنا عبيد الحاجة . . لقد قهرنا الفقر.

- لكنكم لم تقاوموا واستسلمتم . . أردتم أن تنقذوا شيئًا ففقدتم كل شىء.

ثم استطرد:

- ومع هذا فإنى ألتمس لكم بعض المعاذير، فى هذا العصر الذى انتشرت فيه المظالم وساد الاستغلال، وتحكم فينا أقوام لا خلاق لهم ولا ضمير . . لكن الله كبير.

ooo

٥٥ الفصل السابع

قد يكون من الغريب أن يفكر «أحمد شلبى» فى «صابرين»، ويجد صورتها متسلطة على أفكاره. . فى هذه الآونة الأخيرة. . ومصدر الغرابة يكمن فى أن أباها هو حضرة العمدة «خلاّف عبد المتجلى»، ومصدر آخر للغرابة هو تلك الأيام العصيبة التى تجتازها القرية، وتلك الحرب الطاحنة التى لم تشهد البشرية لها مثيلاً منذ فجر التاريخ. . وعلاقة «أحمد وصابرين» علاقة شائكة منذ البداية. . فقد كان هناك عداء تقليدى بين الأسرتين. . يشبه إلى حد كبير ذلك العداء التاريخى بين والدى «روميو وجولييت». . ثم إن تقاليد القرية وأخلاقياتها تأبى أن تقوم علاقة عاطفية بين فتى وفتاة. . لأن مثل تلك العلاقة على حد تعبير الناس فساد وانحلال ورجس من عمل الشيطان.

ونشوء هذه الصلة لم يكن يوحى بأدنى تقدم. . فقلوب أفراد الأسرتين مشحونة بأحقاد هائلة ضد بعضهم البعض، وكان «أحمد» علمًا بين أقرانه، فهو أحد ثلاثة شبان يتلقون العلم فى

المدينة . . ويعرفون اللغة الإنجليزية ، ويتحدثون بها فى طلاقة ، إذ إن الغالب على التعليم بلغة المحتلين وبإشرافهم .

وكانت «صابرين» هى الأخرى شهيرة بين لداتها ، فهى بنت العمدة أولاً ، وتمتاز بجمال رائع ثانيًا . . ثم أنها تلقت مبادئ القراءة والكتابة منذ صغرها على يد محصل الضرائب فى القرية «لطيف أفندى» ، وأصبح فى مقدرتها أن تقرأ الجرائد والكتب كالمأثورات النبوية ، وقصص الأميرة ذات الهمة والزير سالم وسيف ابن ذى يزن وبعض الصحف والمجلات ، وقد خلقت لها الكتابة والقراءة عالمًا جميلاً رائعًا ، وخاصة بعد أن احتجزها أبوها داخل أسوار البيت بعد أن بلغت سن النضج ، ولم تعد ترى الناس إلا من خلال قضبان النوافذ والأبواب شبه المغلقة .

كانت تسمع الكثير عن «أحمد أفندى» وذكائه . . ونجاحه كل عام ، فتلوى شفتيها فى اشمئزاز ، وتكيل له ولأبيه الشتائم ، وكانت مع ذلك تحرص على رؤيته عند مروره فى الشارع ، فتطيل إليه النظر ثم تعود وتوجه إلى مشيته وحركاته وهندامه وشكله الانتقادات اللاذعة ، وتصفع بثقل الدم والغرور . . أما «أحمد» فقد شعر منذ البداية أن شيئًا ما ينمو ويترعرع فى قلبه ، شيئًا يتصل بهذه الفتاة العنيدة الجميلة ، وعلى الرغم من نقمته على أبيها . . واشمئزازه من مسلكه الشائن ، فقد كان لا يستطيع أن يتنكر لتلك المشاعر النبيلة التى تشده إلى الفتاة شدًا لا هوادة فيه .

وكتم «أحمد» هواه فى قلبه . . ويئس من الوصول إلى هدف محدد بالنسبة لـ«صابرين» وخاصة عندما نمى إلى سمعه أنها لا تفتأ تعرض به وبأبيه .

وفى الفترة الأخيرة استبد القلق بـ«صابرين» حتى بدت أغلب وقتها منحرفة المزاج ، سريعة الغضب ، كثيرة الأرق . . كانت تنتهز خطأ غير مقصود من أحد الخفراء أو إحدى الخادمات فتصب جام غضبها على رءوسهم ، وتطورت سرعة الغضب إلى بكاء فى بعض الأحيان . . حتى حارت أمها فى أمرها ، وفكرت فى الاتصال بأحد «الروحانيين» كى يعمل لها «وصفة» أو يكتب لها رقية تقيها شر العين ، وعبث الشياطين . . لكن مثل هذا العلاج لم يأتِ بأدنى تحسن .

وكانت تقف متنمرة حتى إذا ورد اسم «عبد العزيز شلبى» أو ابنه على لسان سارعت بكيل التهم والشتائم لهما ولمن إليهما بصلة ، حتى تحاشوا ذكر اسميهما أمامها ، لكنها تذكرهما من تلقاء نفسها ، وتشفى أحقاد قلبها بكلمات قاسية . . وحينما تم الصلح بين الأسرتين على يد «الشيخ عنبة» ارتاح الجميع ، واعتبروا ذلك بداية عهد جديد للحب والتصافى ، والتفرغ لما هو أهم من شئون الحياة ومشاكلها التى لا تنتهى . . إلا «صابرين» . . فقد ثارت وفارت واحتجت على هذا الصلح ، واعتبرته خطأ لكرامة الأسرة ، وعاراً يلحق بها أبد الآبدين .

واقتربت زوجة العمدة من ابنتها قائلة :

- ماذا تريدين؟ جنازة تشبعين فيها لطمًا . . أليس كذلك؟ . . من أنت حتى تعترضى على صلح أبيك مع عبد العزيز شلبى؟ . . إنه لسوء أدب ، وعهر وفجور أن تتدخل الفتيات فيما لا يعنيهن .

قالت «صابرين» فى حدة :

- وماذا يقول الناس عنا؟

- يقولون أهل خير . . أحلوا الوئام والتصافى مكان العداوة والأحقاد .

وأخذت «صابرين» تبكى بحرارة ، وأمها تنظر إليها فى استغراب . . لشد ما يحيرها أمر فتاتها البلهاء . . ومع أن أمها كانت حانقة عليها ، منتقدة سلوكها ، إلا أنها رقت لدموع فتاتها ، وأخذتها إلى صدرها وجعلت تربت على صدرها فى حنان ، وتقول :

- ما له عبد العزيز شلبى؟ . . رجل طيب؟ ومن أصل عريق . . وابنه أحمد أفندى ، زين شباب البلد ، وغدًا يصير مهندسًا قد الدنيا . . آه . . لكم أتمنى أن يكون هذا الصلح فاتحة خير ، وأن تكونى من نصيبه .

فرفعت «صابرين» وجهها مشدوهة ، وقد توقف انسكاب دموعها :

- مَنْ؟

قالت أمها فى سخرية :

- أحمد أفندى . . آه لو تحقق المنى ويخطبك من أبيك .

وأردفت «صابرين» قائلة :

- أهذا يرضيك؟

- ويرضيك أنت الأخرى يا نور عينى .

- مستحيل يا أمى .

تنهدت الأم . . واتسعت ابتسامتها . . وأشرق وجهها بالسعادة، وقالت :

- كنت فتاة فى مثل سنك . . ولم أكن أعرف ما أريد على وجه اليقين . . فأرانى أحيانًا أسخر من الذى أحترمه . . وأبدى الحقد على من أحبه . . إنها مشاعر متضاربة يا حبيبتى . . لأننا نحاول أن نهرب من الحقيقة . . آه . . ما كان ألذها من أيام .

واستمعت «صابرين» إلى أمها باهتمام بالغ . . وجفت دموعها تمامًا . . وبدت اللهفة فى عينيها . . وعلى وجهها . . وكانت أمها تلحظها من طرف خفى . . متظاهرة أنها لا ترى شيئًا . . وأخيراً قالت صابرين :

- لكنك تعلمين أننى مخطوبة لابن خالى منذ ولادتى .

- ابن خالك شاب دمث الخلق . . وتاجر ناجح . . ويملك عشرين فدانًا . . لكن لا وجه للمقارنة بينه وبين أحمد أفندى . . ومع ذلك فكل شيء نصيب .

قالت «صابرين» فى قلق:

- تعنين أن ابن خالى يمتاز على . . أحمد أفندى؟

- أعنى العكس.

- وما رأيك أنت فى هذا الأمر؟ أيهما تفضلين؟

وانفجرت أمها ضاحكة، وأدركت «صابرين» أنها قد تورطت فى الكشف عن حقيقة مشاعرها، وميلها إلى «أحمد»، فقالت مستدركة:

- لا أقصد شيئًا على وجه اليقين . . لكنها مجرد ثرثرة نسلى بها الوقت ليس إلا.

قالت أمها غامزة:

- منذ لحظات كان مجرد ذكر اسم «أحمد أفندى» يثيرك ويجعلك تقذفين بطوفان من الشتائم، والآن تستمعين إلى الحديث فى هدوء . . أعنى فى شغف ولذة.

وطأطأت «صابرين» رأسها فى خجل، وتمتمت:

- أمى . . .

- أنا أفهمك يا بنت.

- أوه . . أمى.

- على العموم لا تفكرى فى هذا الأمر الآن؛ لأنه سابق لأوانه، وكما قلت لك كل شىء نصيب.

لم تنم «صابرين» ليلتها، فقد باتت تفكر فى أمر واحد، لم تكن شتائمها إلا تعبيراً عكسيًا عن حبها العميق له، وأخذت تستعيد كلمات أمها كلمة كلمة، وتقف عند جملتها عن «أحمد أفندى» زين شباب البلد، وتهيم فى عالم وردى مفروش بريش النعام والزهور العطرة الأريج، وتتخيل «أحمد» إلى جوارها ببسمته الحلوة، وسمرته الفاتنة، وعوده المتسق بين الطول والقصر، وشعره الأسود المنسق، وكلماته الرقيقة الجذابة، ثم تفيق من أحلامها وتجرى إلى النافذة لعلها تراه.. لكن كيف تراه فى هذا الوقت المتأخر من الليل، والقرية كلها نائمة، ولا أحد يدب على الأرض، ثم تعود إلى وسادتها وتدس رأسها الملتهب تحتها لتنام دون جدوى.

***

وما كان فى مقدور «أحمد شلبى» أن يتجاهل ما ينبض به قلبه من عاطفة جياشة، ولا يعقل أن يفاتح أمه أو أباه فى أمر كهذا، ولم يبقَ أمامه سوى «الشيخ عنبة»، هذا الرجل الذى يعيش بهيكل شيخ مسن، وقلب شاب فتى، ويناقش مختلف الأمور بروح طيبة، ويطرب لحرية بالرأى، ويستطيع أن يدير دفة الحديث بلباقة مع الشيخ والشاب والطفل والمرأة بذكاء وحيوية.

قال «أحمد» متلعثمًا:

- ما رأيك فى الزواج؟

- سنة الله فى الأرض .

- و . . .

فقاطعه الشيخ عنبة قائلاً :

- لندخل فى الموضوع مباشرة ، ولنتكلم بصراحة .

فاندفع أحمد قائلاً :

- أردت أن أستطلع رأيك فى صابرين . .

قال الشيخ عنبة :

- الصابرين على خير .

- ماذا تعنى؟

- أعنى أنه أمر سابق لأوانه ، وتفكيرك الآن يجب أن ينحصر فى الدراسة ، وفى مستقبلك .

- لكنها جزء من مستقبلى .

- لم تزل صغير السن مثلها ، وأمامك مرحلة مهمة فى الدراسة ، لكى تبنى حياتك الزوجية ، يجب أن تقيمها على دعائم راسخة . . فالاجتهاد أولاً . . والزواج ثانيًا .

قال أحمد فى ضيق :

- وإذا تقدم آخر فى هذه الأثناء واحتجزها لنفسه؟

- إذا كانت تحبك فستنتظرك .

- الأمر بيد أبيها .

- أستغفر الله . . إنه بيد بارئ الأرض والسماء . . وعلى العموم دع هذا الأمر الآن .

وسكت «أحمد» على مضض، إنه يحترم رأى «الشيخ عنبة» ويجله، ولا يشك فى إخلاصه أدنى شك، لكن إجابة الشيخ لم تشف نفسه، أو تبرد جمرة هواه . . إن اللهفة التى تستولى عليه، والشوق العارم الذى يملأ قلبه، لا يدع له فرصة للتروى والصبر . . لكن ما الحيلة؟ هو مضطر لأن يصبر .



•• الفصل الثامن

لم يكن الناس قادرين على أن يصدقوا ما يسمعونه، وحين رأوه بأعينهم.. ولم يعد هناك أدنى شك فى حدوثه، تمتموا فى حسرة قائلين: إما أننا فى حلم رهيب غريب، وإما أن هذا الزمن زمن الشيطان والخسران المبين، فكيف يصدقون أن «أبا المعاطى الشافعى» الرجل الوجيه، صاحب العمامة، والذى يفض منازعات الناس، ويحكم بينهم فى بعض الأحيان مثلما يفعل العمدة والحاج أحمد شلبى وغيرهم من أهل الكلمة المسموعة، كيف يصدق الناس أن «أبا المعاطى» بلحمه ودمه كاد يرتكب جريمة قتل؟ كان يريد أن يقضى على الخواجة «ينى» ويمزج دمه بتراب الأرض، وقال قائل: إن الخمر فعلت فعلها فى عقل الرجل، وانعكست على سلوكه، فلم يعد يعرف الخطأ من الصواب، ولم يستطع أن يفرق بين ما يرضى الله ويسخطه.. ومن قائل: إن الحرب قد أفسدت الذمم.. وأنقصت من وازع الدين فى النفوس.. فانطلق أناس كالوحوش فى الغابة يحلم كل واحد منهم أن يجد لنفسه فريسة، أما الحقيقة التى سرعان ما عرفها الجميع هى ذلك الدين الكبير الذى التزم «أبو

المعاطى الشافعى» بأدائه للخواجة، وإلا فالمحكمة أو انتزاع ملكية أرضه. . كان الخواجة قد أمهل «أبا المعاطى» أسبوعًا واحدًا لا غير. . وعاد «أبو المعاطى» إلى بيته محزونًا مهمومًا يفكر فى أمر نفسه. . كيف يدفع الخمسمائة جنيه. . ولم يكن هناك وسيلة سوى أن يتنازل عن ملكية أرضه. . لأنها تكفى بالكاد لوفاء دينه. . لكن كيف يتحول هكذا دفعة واحدة. . من رجل غنى مرموق إلى رجل فقير؟ ومن أين له أن يأكل ويلبس ويطعم أولاده ويكسوهم، وهو الذى طالما تصدق على الفقراء والمساكين. . وفتح بيته لعابرى السبيل وأغدق على المحتاجين فى المواسم والأعياد؟. . كانت هذه الحقيقة المرة تثير «أبا المعاطى» وتحزنه، ويحزنه أكثر بناته الثلاث اللاتى أصبحن فى سن الزواج. . فمن يتقدم لخطبتهن بعد أن تحل كارثة الفقر. . ويصبح رجلاً خاوى الوفاض، وكاد «أبو المعاطى» يفقد عقله. . وهو يكتشف تلك الحقائق المذهلة. . وثارت ثائرته حينما تذكر الكأس الأولى التى قدمها له «الخواجة ينى». . كانت بلا ثمن. . هدية متواضعة كما زعم. . حقًا. . الخواجة هو السبب فى انحرافه وإدمانه للخمر. . والخواجة هو الذى أغواه. . وأوقعه فى كمين الربا الفاحش. . وخدعه برقته وابتسامته. . وملأه غرورًا وهو يطرى رجولته وشهامته وكرمه. . ثم تجهم دفعة واحدة، حينما تأزم الموقف، وشح المال فى يده.

ولهذا قرر «أبو المعاطى» أن يسفح دم الخواجة. . وخيل إليه أنه عندما يقضى على الخواجة ينتهى أمر الدين. . بل سولت له نفسه

أن قتل الخواجة خدمة عامة . . لأنه سيخلص الكثيرين من المديونين . . وتبقى الأرض لأصحابها، ولا يحرم الناس من مصادر رزقهم . . وكان «أبو المعاطى» يرى أن الخواجة يدفع خمسة وعشرين . . ويتقاضى فى نهاية المدة مائة . . أربعة أمثال ما دفع . . وفى ذلك ظلم فاحش . . واستغلال مبين . . ولهذا اعتقد «أبو المعاطى» أن القضاء على «الخواجة» قضاء على الاستغلال وتحرير لمئات من الفلاحين من الظلم والإرهاق . . وأخذ «أبو المعاطى» يفكر ويدبر . . ولم يستطع فى النهاية أن يستدرج الخواجة إلى مكان بعيد . . لأنه نادراً ما يغادر الخمارة . . وإذا غادرها فإن ذلك يكون فى حراسة خفرائه الخصوصيين . . والذين يشرفون على الأرض وإيجاراتها ومحاصيلها . . ويكونون على أهبة الاستعداد لحمايته . . ثم إن «الحاج إبراهيم» وكيل أعماله ملازم للخواجة كظله . . ويعتبر أن فى حماية الخواجة حماية لمصدر من مصادر رزقه . . ووفاء للرجل الذى كان سببًا فى نمو ثروته . . وانتعاش أسرته كلها من الناحية المادية . . نتيجة لأرض الخواجة التى يزرعونها .

ولم يطق «أبو المعاطى» صبراً . . ماذا بعد الإفلاس؟ الفضيحة والعار . . فما الذى يجعله ينتظر؟ الموت ولا العار، ولهذا أخفى «أبو المعاطى» خنجره بين طيات ملابسه . . ومضى فى طريقه متظاهراً بالوقار والهيبة . . حتى بلغ الخمارة . . كان «ينى» يجلس على مقعد خيزرانى . . وعلى وجهه سيما الانشراح والثقة . .

يبتسم لهذا . . ويداعب ذاك . . ويشارك المارين في تعليقاتهم ونكاتهم . . لا يستثنى من ذلك الأطفال أو الفتيات الصغيرات . . وألقى «أبو المعاطى» التحية . . فرد الخواجة باقتضاب .

- أريدك على انفراد .

قالها «أبو المعاطى» مرتجفًا . . فنظر إليه الخواجة قائلاً :

- لماذا؟ أتريد التأجيل أسبوعًا آخر؟ مستحيل .

أجاب «أبو المعاطى» وهو يكظم غيظه الهائل :

- بل جئت لأسوى الحساب .

- تسوية نهائية يا حبيبى .

- نهائية يا خواجة . .

- هذا عين العقل . . ستوقع وثيقة التنازل عن عشرة أفدنة . . أنت تعرف سعر الأرض فى هذه الأيام . . ومحصولها لا يباع إلا بمبالغ تافهة ، والريالات شحّت تمامًا .

أخذ «أبو المعاطى» يصر على أسنانه فى غيظ ، لكنه تماسك قائلاً :

- لندخل أولاً . . هذه الأمور لا تناقش فى الشارع كما تعلم يا خواجة ، وأنت سيد العارفين .

- بالطبع . . هذه مناسبة طيبة . . وأنت رجل شريف يا أبا المعاطى . . إنى متبرع بزجاجة ويسكى . . زجاجة كاملة تشربها اللحظة فى نخب صداقتنا الخالدة .

وابتسم «أبو المعاطى» فى مرارة قائلاً :

- صداقتنا الخالدة؟ أنت رجل كريم يا خواجة . . وابن أصل . . أجل . . أنت تملك الكثير .

قال الخواجة متخابثًا :

- أنا رجل فقير .

- ومئات الأفدنة؟

- وهل سأخذها معى إلى القبر يا حبيبى .

- ففيم هذا الحرص كله على توسيع رقعتها، وعدم التساهل مع المديونين؟

- هذا شىء . . وذاك شىء آخر يا أبا المعاطى .

جلس الرجلان وبينهما زجاجة ويسكى صغيرة . . وكأسان فارغان . . ثم صب الخواجة . . وشربا دون أن يتكلم «أبو المعاطى» كلمة واحدة . . مصمص «أبو المعاطى» بشفتيه . . ثم سدد نظرات نارية إلى الخواجة وهتف :

- هذه آخر كأس . . وهذا آخر لقاء بينى وبينك . . يا حبيبى .

- لا شك أنك تنوى القطيعة؟

- بل أنوى قطع رقبتك .

وفى لمح البصر الخنجر يلمع فى يد «أبى المعاطى» . . وجمد

الخـواجـة لحظة . . ثم وثب كـقط برى عن مكانه . . فـوقـعت الزجاجة . . وتحطم الكأسان . . وانقض عليه «أبو المعاطى» كثور هائج . . ورفع يمناه ليغرس الخنجر فى قلبه . . ولكن الخواجة أخذ يصرخ ويستغيث ويتلوى، فأصاب الخنجر كتفه اليسرى . . وسرعان ما أتى «الحاج إبراهيم» . . وكيل الأعمال مهرولاً . . كما تقاطر عدد من خفراء الخواجة الخصوصيين وبضعة نفر من المارين بالشارع مصادفة وقتذاك . . ونظر «أبو المعاطى» إلى نفسه . . كان الخفراء ممسكين بذراعيه . . والخنجر ملقى على الأرض يقطر دمًا . . «والحاج إبراهيم» يدفعه إلى الخارج فى غلظة . . «والخواجة ينى» يقف يكاد الخوف يصرعه . . وثار «أبو المعاطى» محاولاً التخلص ممن أمسكوا به دون جدوى، ثم بصق فى وجه الخواجة فى حقد وخيبة أمل صارخًا :

- أيها الكلب الحقير .

لكن الخواجة كان قد استعاد رباطة جأشه . . وتمالك أعصابه، فأخرج منديله، وأخذ يجفف البصقة، ثم يتحسن الجرح بكتفه، وغمغم :

- هذا تصرف وحشى . . ما كان يجب أن آمن الفلاحين من أمثالك . . الغدر طبيعتكم .

فلم يزد «أبو المعاطى» على أن كرر ما قال وهو يلهث :

- أيها الكلب الحقير .

- ستدفع الثمن غاليًا .

- دائمًا تتحدث عن الثمن . . ولا تعرف غير ذلك . . لكن ثق أنك لن تفلت من يدى مهما طال الزمن .

وقال الخواجة :

- بالأمس كنت مهددًا بضياع أرضك . . أما اليوم فيضاف إلى ذلك دخولك السجن . . إنه شروع فى قتل . . والقانون هو القانون .

- أعرف أن القانون فى صفكم دائمًا .

وذيع الخبر فى كل مكان ، وكثرت التعليقات عليه ، لشد ما شمت مدينو الخواجة فيه ، وشعروا باليأس بعد أن أفلت من الموت بأعجوبة ، وعلقوا على ذلك قائلين : «عمر الشقى . . بقى» ، أما «الشيخ عنبة» فقد كان له رأى آخر إذ قال :

- العنف فى مثل هذه الحالة يعقد الأمور أكثر ، وما كان القتل تحت هذه الظروف وسيلة ناجحة . . الخواجة لن يقتله خنجر ، وإنما نستطيع أن نقضى عليه بوعينا ، وقطعنا دابر استغلاله لنا بمقاطعته وعدم التعامل معه ، ما دام على هذه الصورة من الجشع .

ووقف العمدة كرجل مسئول موقفًا محايدًا ، فاستدعى الشرطة والنيابة ، ولم يتدخل فى صالح أحد الطرفين ، وكان هذا تصرفًا رائعًا منه ، فقد كان معروفًا من قبل أنه فى صف الخواجة دائمًا . . ويدًا تبطش بمناوئيه . . وبالذين يماطلون فى سداد ما عليهم من

ديون . . نظير نسبة معينة يتقاضاها سراً من الخواجة . . أما هذه المرة . . فقد رفض مال الخواجة . . ولم يتحيز لواحد من الطرفين .

وسيق «أبو المعاطى» إلى الحبس التحفظى تحت ذمة التحقيق . . ولم يكن هناك جدوى من الإنكار . . بعد أن شهد الشهود . . وعلى رأسهم الحاج إبراهيم . . ومع ذلك فإن الخواجة لم يترك الأمور هكذا تمر دون حيلة ماكرة . . فقد أعلن أمام الجميع أنه متنازل عن حقه . . وأنه قد صفح عن «أبى المعاطى» تقديسًا لذكرى الصداقة الخالدة والعيش والملح . . لكن الحكومة لا بد أن تأخذ حقها . . وإن اصطلح الطرفان .



●● الفصل التاسع

كانت الحرب طاحنة قاسية، تثير في أرجاء الدنيا موجة من الخوف واليأس، وتشعل في أعماق النفس الإنسانية أنانية وقوة واستهتارًا، وفي مثل هذه الظروف تفقد الإنسانية كثيرًا من المعاني الخيرة النبيلة، وتضعف آدمية الإنسان، وتهيىء الفرصة للوحش الكامن في أعماقه كي يعربد ويؤذي، ويعيد شريعة الغاب، وهكذا تكون حرب الأطماع دائمًا ينعكس أثرها السيىء على النفوس والضمائر وتنقل شرورها من دولة إلى أخرى، ومن فرد لفرد، حتى يصطبغ الوجود كله بصبغة شيطانية لا تحمل سوى معاني الدمار والضياع والانهيار الشامل.

لكن المعاني النبيلة لا تموت كلية.. فبذورها كامنة.. لأن الله جلّت قدرته.. يأبى أن يموت الأمل في قلب الإنسان، فيوحي إلى بعض الشرفاء من بني الإنسان كي يدعو إلى الحرية والحب والسلام.

كان الظلام يسود كل أرجاء العالم.. لكن شعاع الأمل يضيء من آن لآخر.. ويحيي في النفوس الإيمان والثقة في مستقبل

أفضل . . ولم تكن قريتنا الصغيرة الملقاة وسط بساط الحقول الخضراء، تحت قبة السماء الزرقاء الصافية . . إلا صورة مصغرة للعالم الهائج المضطرب، كانت تغص بالخلافات الصاخبة، والمآسى الدامية، وينتشر فيها المرض والجوع والجهل، ومع ذلك فقد كان فيها «الشيخ عنبة» المؤمن المكافح الصابر، وكان فيها «الشيخ عبد العزيز شلبى» الذى كوّن ثروته من الحلال . . ولم يبخل على المستضعفين من المساكين والمحزونين ببره وحنانه، وكان فيها أحمد ابنه ممثل الجيل الجديد فى الكفاح وتلقى العلم والوطنية . . واحتواء مشاعر الحب الراقى، والإحساس بآلام الإنسان المستعبد فى قريته . . وكان فيها حضره العمدة «خلاّف عبد المتجلى» الذى خاض تجربة العنف والقسوة والظلم . . ثم تحول بفضل كلمات مخلصة واعية إلى رجل صالح يبكى ندمًا على ما بدر منه، ولا يدخر وسعًا فى التكفير عن خطئه، والسهر على خدمة أهله ومواطنى قريته . . وكان فيها «عبد الغفار الطبال» ذلك الدرويش الأعرج الذى يتميز بنفس صافية، وعبادة دائمة . . ولا يتخلف عن أداء أية خدمة تطلب منه . . كان يعيش على الصدقات . . لكنه لم يبخل بلقمة العيش على جائع، وما أكثر الجائعين الذين يخجلون أن يمدوا يدهم طلبًا للإحسان وغيرهم كثيرون فى قريتنا .

وهكذا لم تفقد قريتنا الأمل . . ولم تعدم شعاع الثقة الذى ينبض فى ظلماتها المدلهمة .

ولم يبقَ على رحيل «أحمد أفندى» إلى القاهرة إلا يومان أو ثلاثة . . وبعدها يغادر الأرض الحبيبة التى يعشقها . . ويحب أهلها . . إن قريته قطعة منه . . جزء من روحه وكيانه . . وذكرياته كلها . . ولم يكن أحمد يشعر بالاستقرار والأمن كلما اقترب موعد الرحيل . . وفى هذه الحالة كان طبيعيًا أن يفكر فى «صابرين» .

لم يعد فى مقدوره أن يتجاهلها . . ومستحيل أن تخطو هى الخطوة الأولى . . فكان عليه أن يبدأها . . أن يعرف حقيقة مشاعرها . . لعل هناك شيئًا يقف حائلاً دون تحقيق رغبته . . لكن كيف وأسوار بيتهم عالية ، وأبوها لا يستامح قيد أنملة فى التضييق عليها . . وصون حرمتها . . ولم يكن هناك بد من أن يسطر لها خطابًا موجزًا . . لا خروج فيه على الآداب . . ولا يتنافى مع ما درج عليه أهل القرية من حشمة ووقار ، مع أن مجرد كتابة خطاب- ولو ظاهر البراءة- لفتاة فى سن الزواج ، أمر ترفضه تقاليد القرية ، وتتنكر له .

***

ولا يدرى «أحمد» كيف حدثت هذه الزيارة المباغتة . . هل جاءت نتيجة تدبير محكم ، وخاصة أنه سيسافر فى الغد ، أم أنها مجرد مصادفة؟ كل ما أشيع بخصوص هذه الزيارة . . هى أنها لتوثيق عرى المودة والألفة بين الأسرتين . . أسرة العمدة ، وأسرة «شلبى» بعد قطيعة طويلة . . وكانت هذه الزيارة مقصورة على

الحريم وحدهن، لشد ما طربت «صابرين» وهى ترتدى أفخر ثيابها الحريرية وتتلفع بشالها الوردى . . وتنسق خصلات شعرها، وتقف أمام المرآة . . وتلف وتدور . . ناظرة إلى هندامها، وملامحها وعودها الملفوف، وصدرها الناهد، ولم يخف على أمها أن صابرين اليوم غيرها بالأمس . . أهذه هى التى كانت تكيل التهم والشتائم لآل «شلبى»؟ إنها تكاد تجن فرحًا لمجرد الذهاب فى زيارة عابرة إلى بيت شلبى .

وأخذت «صابرين» تقول وهى تروح وتجىء فى الردهة الواسعة :

- حقًا . . إن الصلح خير يا أمى .

قالت أمها متخابثة :

- ربنا يرزقك بابن الحلال يا ابنتى .

- أوه . . دائمًا تتناولين كلماتى بالتأويل والتحريف، أنت تعلمين أننا لا نغادر بيتنا إلا لمامًا . . أبى أطال الله عمره أقام من بيتنا سجنًا لنا .

قالت أمها متمثلة بالحكمة الشعبية :

- من خرج من داره . . قل مقداره .

- أما أنا يا أمى فأعتقد أن من خرج من داره فى فترات قليلة . . ينعم بالهواء الجميل وتغيير المناظر، والترويح عن النفس .

- أهل الحسب والنسب «ياصابرين» لا يصح أن يغادروا منازلهم.

- لماذا؟

- قد جرى العرف بذلك.

- المهم أننا سنخرج الليلة بزغم أنف العرف.

- سنخرج «يا صابرين» تحت جنح الظلام سرًا.. ولن يرانا أحد.

كان «أحمد» يعلم بمقدمهم منذ الصباح، وحمد الله كثيرًا إذ كتب له أن يرى «صابرين» الليلة قبيل سفره، ولعله يتزود منها ببعض الكلمات أو النظرات العابرة، هذه النظرات المرتقبة تساوى عنده ألف لقاء.. إنها أشهى من مئات القبل.. وتمادى «أحمد» فى أحلامه ففكر فى تقديم هدية لها، ولم يقع فى حيرة، فهو يعلم جيدًا أنها تحب قراءة القصص الطويلة، وكان لديه نسخة من كتاب «حديث عيسى بن هشام» القصة الطويلة البليغة التى كتبها المويلحى.. ولم يكد يبلغ هذا الحد من التفكير حتى امتلأت نفسه سعادة وأملاً، وعاد إلى أوراقه يكتب لها خطابًا يضعه داخل الكتاب، ولكن ماذا يكتب لها؟ ها هى الحيرة تأخذ بتلابيبه من جديد؛ لأنه لم يجرب من قبل هذا النوع من الخطابات، لقد عاش طول حياته الدراسية فى الابتدائى والثانوى لا يعرف شيئًا غير الكتاب، لم يجرؤ مرة واحدة على محادثة أنثى ناضجة محادثة عاطفية، لكن الوقت ضيق وعليه أن يكتب أى كلام وإلا ضاعت الفرصة.. إنه مسافر غدًا.. والسفر دائمًا يحوى معانى الغربة

والرحيل. . وتسيل الدموع من عينيه، لا بد أن يكتب. . وليكن محافظًا مؤدبًا فى اختيار الكلمات التى يسطرها قلمه المرتعش:

«عزيزتى صابرين:

لا أعلم هل ستسعدين بهذه الكلمات أم لا.. . لكن الشيء الأكيد هو أني أكتبها بروحي وقلبي؛ لأني مؤمن أشد الإيمان أن أحلى لحظات عمرى، هى تلك اللحظات التى سنلتقى فيها تحت سقف بيت الزوجية.

عزيزتى صابرين:

فى قلبى كلمات كثيرة لا أستطيع أن أخطها على الورق، فالكلمات- فى أغلب الأحايين- تعجز عن التعبير الصادق عن أشواق روحى، وأمنيات حياتى. .

عزيزتى:

منذ سنوات، وأنا أعتقد أن الله قد خلقك لى، ولم يزعزع إيمانى قط ما كان يحدث بين أسرتينا، من خلافات متوالية، وقلبى لم يتنكر يومًا للمشاعر النبيلة التى أكنها لك.

عزيزتى:

سأسافر غدًا. . وسيبقى قلبى هنا. . وسأظل أحلم بيوم العودة إلى قريتنا الحبيبة الغالية «شرشابة». . وها أنذا أكتب إليك معاهدًا على الوفاء الأبدى، حتى أنتهى من دراستى، ويتم زواجنا حسب سنة الله ورسوله.

عزيزتى صابرين:

لم يبقَ إلا كلمة منك، تعبر عما يكنه قلبك نحوى . . إنه لأمر مهم، وسأنتظر كلماتك على أحر من الجمر، ويمكنك الكتابة إلىّ، على عنوان بمدرسة المهند سخانة بالقاهرة.

ملحوظة:

لم أجد ما أقدمه لك تعبيراً عما تحمله روحى من تقدير واحترام سوى هذا الكتاب القيم، المليء بالعظات والعبر، كتاب «حديث عيسى بن هشام» . . ».

وسلام الله عليك ورحمته وبركاته

المخلص

أحمد شلبى

***

مر وقت الزيارة على «صابرين» «وأحمد» كالحلم الجميل، لم يكن يرى فى الحاضرات سواها، ولم تكن ترى سواه، كانت تغمض عينيها، أو تحنى رأسها، لكن صورته لا تغادر مخيلتها، وكان «أحمد» يخرج إلى الردهة كلما اشتد حرجه، وورّد الخجل وجنتيه، فيقضى بضع دقائق فى الخارج، ولكنه لا يرى فى ضوء القمر سواها، وقامت زوجة العمدة- تحت إلحاح أم أحمد- لترى الدولاب الجديد فى الحجرة المجاورة، وتلكأت «صابرين»، ووقف

«أحمد» عاجزًا لا يستطيع أن يتقدم خطوة، الكتاب فى يده، ورمته «صابرين» بنظرة عابرة، فاستجمع شجاعته، واقترب منها مادًا يده بالكتاب قائلاً فى تلعثم:

- نورت بيتنا.

- بوجودك يا سى أحمد.

- هدية متواضعة.. بداخلها خطاب.

وكم كان سروره حينما رآها تمد يدها، وتقول:

- مقبولة من يدك الحلوة.

- وأنا.. وأنا.. أعنى.. أننى مسافر غدًا.

شحب وجهها، وخيّل إليه أنه يرى الدموع تلمع فى عينيها، حاول أن يتكلم فلم يستطع، لكن هذا المشهد القصير.. وتلك الكلمات القليلة كشف له عن كل شىء.

وهمست صابرين:

- مع السلامة.. لا تنسَ.. أمى قادمة.

وأدار وجهه، ومضى بعيدًا.. كان العرق الغزير يسيل فوق وجهه وعنقه، وكان قلبه يدق فى عنف، ولكن السعادة تملأ قلبه، وكل أقطار الدنيا من حوله.

وشعر براحة كبرى، وهو يأوى إلى فراشه، وكأنه أتى عملاً خطيرًا شاقًا.

أما «صابرين» فقد بقيت طول الليل تقرأ الخطاب . . الخطاب القصير الطويل .

كان خطاب «أحمد» أول نغمة قدسية تتسلل إلى روحها العذراء . . وأول أغنية حانية تغلغلت فى أعماقها البكر . . وشعرت عند ذاك أنها تعيش وتنمو . . وأن الدنيا كلها طوع بنانها ، وأن العالم الضيق الذى فرض عليها أبوها أن تعيش فيه أصبح عالمًا فسيحًا مليئًا بكل ألوان البهجة والحرية الرخاء .

وقبّلت الخطاب .

وأغمضت عينيها على حلم شائق جميل .

●●●

•• الفصل العاشر

وفى قريتنا رجل غريب الأطوار، قلما يجهله أحد، اسمه على كل لسان، قصير ماكر، له عينا صقر، وخفة ثعلب، وبطش نمر، ونعومة ثعبان، يدعى «خفاجة». فى ظاهره فلاح كآلاف الفلاحين الذين يذهبون إلى حقولهم مع مطلع الشمس، ويعودون إلى دورهم عند مغربها، له نظرات لا يستطيع أحد أن يواجهها، ومع ذلك فهو يبتسم دائمًا، يصفه الشيخ «عنبة» بقوله: «شيطان مريد، ذو دهاء إنجليزى»، الجميع يعرفون أنه قاتل محترف، يستغله المتخاصمون فى القضاء على بعضهم البعض، ومن يدفع أكثر ينال رضاه، تدبيره حكم غاية الإحكام. . العمدة كان مضطرًا دائمًا لأن يصادقه والأهالى يبتعدون عنه اتقاء لأذاه، وتجنبًا لغدره، وإذا طلب من أحد مبلغًا من المال لا بد من دفعه، يستطيع الفلاحون أن يثوروا أو يتمردوا فى وجه العمدة، ويمتنعوا عن دفع ما يفرضه عليهم من إتاوات جائرة، أما «خفاجة» فمستحيل أن يرفض له أحد طلبًا، وهو بدوره ذو خبرة وذكاء، لا يطلب إلا من القادر، ولا يتصدى إلا للأقوياء فى أغلب الأحيان.

فكر «الخواجة ينى» فى وضعه الجديد بعد حادث الاعتداء عليه، والقبض على «أبى المعاطى» ولم يستطع أن يبعد عن نفسه نوازع الخوف، إن ضحاياه كثيرون، ولا بد أن هناك كثيرين مثل «أبى المعاطى» يتمنون قطع رقبته، فما معنى ذلك؟ . . هل يستسلم «الخواجة» ويقدم رقبته للأعداء؟ . . هل يترك البلد ويهجرها إلى المدينة، تاركًا تصريف الأمور لوكيله «الحاج إبراهيم» ثم يناقشه الحساب من آن لآخر، ويستلم الإيراد أولاً بأول؟ أم ماذا يفعل؟ العمدة لم يعد حليفًا مخلصًا كالأمس، والشيخ «عنبة» يمشى بين الفلاحين ناشرًا بينهم الوعى، محذرًا إياهم من التعامل مع الخواجة، و «عبد العزيز شلبى» رجل مثالى أكثر من اللازم، ولا يعقل أن يضع يده فى يد متعامل بالربا الفاحش . . حتى «عبد الغفار الطبال» ذلك الأعرج المخبول يرفض الصدقة التى يقدمها له الخواجة؛ لأنها من مال حرام كما يقولون . . وأغلب الظن أن أهل القرية شمتوا فيه يوم أن حاول «أبو المعاطى» قتله، وعضُّوا على شفاههم غيظًا لنجاته، فالخواجة يعرف أن الناس يكروهونه لأسباب يعرفها أكثر من غيره، حتى وكيله «الحاج إبراهيم» ليس مؤتمنًا، إنه يسرق منه، ويغش فى الحساب، ولو وجد الفرصة سانحة لاقتناصه لاقتنصه . . لكن الحماية الإنجليزية مفروضة على مصر كلها، وحماية الأقليات، تلك القضية الزائفة التى لا أساس لها، واجب مفروض فى عنق قوات الاحتلال . . ومع ذلك فإن الخواجة فى حاجة إلى رجل قوى . . أقوى رجل . . ولهذا اختار

«خفاجة» . . كان الخواجة يخافه وكان فى إمكان الخواجة أن يشى به إلى المسئولين فيصدر أمر باعتقاله، لكن «خفاجة» كان أذكى منه، إذ لم يحاول التعرض للخواجة . . كان يفكر ألف مرة قبل أن يخطو خطواته الحاسمة، ولهذا رأى من الحكمة أن يدع الخواجة وشأنه . . وذات مساء استدعى الخواجة «خفاجة»، ودخل «خفاجة» وحيدًا قصيرًا باسمًا ، وسحب مقعدًا وجلس قبالته، وانتظره الخواجة أن يتكلم، أو أن يستفسر عن سبب استدعائه، لكن حرص «خفاجة» جعله يعتصم بالصمت، فلم يجد الخواجه بدًا من أن يفتتح الحديث :

- هذا لقاء كنت أنتظره من زمن بعيد .

ولما لم يعلق «خفاجة» بشىء استطرد الخواجة :

- تعلم أنى استوليت على فدادين أبى المعاطى العشرة؟

- أعلم .

- كان الرجل فظًا معى، وعقر اليد التى قدمت له الإحسان .

فهز «خفاجة» رأسه دون أن يتكلم، ثم قال الخواجة :

- وقد قررت أن تقوم أنت بزراعة هذه الأرض لحسابك .

- كيف؟

- سأؤجرها لك .

- مهمة شاقة .

- لا تفكر فى ذلك . . أريد أن أكسب صداقتك كرجل، ومسألة الإيجار لا تشغل بالك بها فما أسهل أن أتنازل لك عنها . . ألك رغبة فى كأس؟

قال «خفاجة» وهو يسدد نظرات فاحصة إلى الخواجة :

- لا أشرب الخمر . . بل أدخن الحشيش .

- ومع ذلك فإنى أعتقد أنك لن ترفض كأسًا واحدة . . إنه تحية لا أقدمها إلا لأصدقائى الأعزاء .

قال «خفاجة» فى مكر :

- لكنها محرمة شرعًا كما يقول «عنبة» .

وأوشك «الخواجة» أن ينفجر ضاحكًا، وهل أدعى للضحك من رجل يقتل النفس الإنسانية دون تحرج، ويرفض كأسًا من الخمر مخافة الله؟ وأمام إصرار «الخواجة» جرع «خفاجة» كأسين متتاليتين وبعدها وجد لدى نفسه رغبة ملحة فى الكلام، فأخذ يقول :

- أنت رجل ذكى يا خواجة . . كنت واثقًا أننا سنلتقى يومًا ما . . أنت فى حاجة إلىّ، وأنا أيضًا لا يمكننى الاستغناء عنك . . كان لا بد أن نكون أصدقاء . . صداقتنا معناها ألا يتعرض لك أحد بسوء، ومعناها أن تجمع إيجار الأرض دون أن ينقص مليمًا واحدًا، أنت رجل غريب، والغربة أخطار ومخاوف . . هيه . . أتفهمنى؟

قال «الخواجة» ضاحكًا :

- ولهذا استدعيتك .

- صفقة رابحة بإذن الله .

- ولا أريد أن تكون صداقتنا سرًا منذ الليلة . . لتكن حديث الناس، وليعرفها كل واحد فى القرية .

وملأت الخمر رأس «خفاجه» بالغرور، وبرقت فى عينيه رغبات الشيطان . . وقال وهو يصب لنفسه الكأس الثالثة :

- ومَنْ الذى تريد أن تلقنه الدرس الأول؟

هتف «الخواجة» بصوت كالفحيح .

- عنبة . . «الشيخ عنبة» .

وتصلبت يد «خفاجة» على الكأس . وظل صامتًا برهة، لكأن ذكر الشيخ قد أطار من رأسه كل أثر للخمر . . ثم قال :

- هذا شيخ مخرف . . بضاعته الكلام .

رد الخواجة محتجًا :

- أنت لا تعرفه . . هذا الرجل داهية . . كلماته أقوى من ألف قنبلة . . يقول للناس لا تتعاملوا مع الخواجة . . يحرضهم على مقاطعتى . . ويقول لهم : اذهبوا إلى السجن وفاء لالتزاماتكم المادية . . وبيعوا أغلى ما تملكون، ولا تقترضوا من الخواجة بالربا

الفاحش . . تصور ! ! هذا العام لم أقرض مالى إلا لعدد ضئيل جداً . . عنبة هو الذى أفسد علىّ الجو . . وعنبة هو الذى أفسد علىّ العمدة . . أراد «أبو المعاطى» أن يقتلنى بخنجره . . فعجز . . أما «الشيخ عنبة» فقد قتلنى معنوياً ومادياً بكلماته . . إنه رجل خطر .

ثاب «خفاجة» إلى رشده . . وتذكر الشيخ بسمته الهادئ الورع . . ولحيته البيضاء . . وجلسته على المنبر يعظ الناس . . ودوره فى إزالة الأحقاد والخصومات . . ووقوفه دائماً إلى جانب المظلومين والمساكين . . فتمتم «خفاجة» فى حيرة :

- لكنه رجل من رجال الله .

- كلنا أبناء الله .

- بل عبيده .

- أتخاف الله لهذا الحد يا خفاجة؟

- أخاف وإن كنت أعصاه .

- وكيف يتفق الخوف والمعصية؟

- لا أعرف . . ولكنى أذكر أننى قاسيت كثيراً فى طفولتى ، وأذكر أن أبى مات بعيداً فى أعمال السخرة أيام حفر قناة السويس ، وتزوجت أمى من رجل شرس سقانى الهوان . . واشتغلت أجيراً فى أحد التفاتيش السلطانية . . وهناك ذقت الكرباج لأول مرة . . كان قاسياً . . ولم أستطع أن أنعم بالراحة إلا بعد أن اكتشفت قوتى

ودهائى . . فتعلمت الانتقام . . ومارست القتل . . ثم احترفته . . لكنى احترفته بشروط . . إن يدى لا تطاوعنى حينما أسدد ضربتى إلى قلب رجل شريف كالشيخ «عنبة» . . إنه لا يريد شيئًا لنفسه .

– لكنك قتلت الكثيرين وتقاضيت الثمن يا خفاجة .

– لا أنكر . . ولا أكتمك أنى الآن لست فى حاجة لأن أقتل . . إن الخوف الذى أبذره فى قلوب الخلق يكفى وحده لتحقيق ما أريد . . ولا ألجأ إلى القتل إلا عندما تعجز حيلتى . . إنه آخر شىء أفكر فيه .

وارتسم القلق على وجه «الخواجة» ، وأدرك أنه لم ينجح النجاح الذى توقعه ، فأراد أن يكاشف «خفاجة» بالحقيقة ، قال :

– إن أخطر العناصر شأنًا هم أولئك الذين تسميهم رجال الله .

واستطاع «خفاجة» أن يقنع الخواجة بأن «عنبة» ليس هو العدو الوحيد له ، وقرر أن البلد كلها تعاديه وأن المهم فى الأمر هو ألا يتعرض أحد للخواجة بسوء ، ولا يقصر مدين فى تأدية ما عليه ، ويكفى أن مأساة «أبى المعاطى» لن تتكرر ، ثم استطرد :

– وثق يا خواجة . . إن الناس لن يستغنوا عنك مهما قال عنبة ووعظ ؛ لأن الحاجة إليك أقوى من المبادئ ومن عنبة . . ومن كل الطيبين الشرفاء فى العالم أجمع . . فهز «الخواجة» رأسه قائلاً :

– هذا كلام رجل خبير .

فابتسم خفاجة، وقال:

- لولا ذلك الحذر الذى أعتصم به، لوقعت فى يد الشرطة منذ زمن بعيد.. لكن العمدة فى جيبى، والأهالى لا يجرؤ واحد منهم على الشهادة ضدى، ثم إنى لا أترك قرينة واحدة تديننى.. وأضرب ضربتى فى إحكام.. تحت جنح الظلام.. دون أن يرانى أحد.

وامتدت يداهما فوق الزجاجة والكئوس الفارغة، وتعاهدا عهدًا غريبًا فى حماية الشيطان.

ooo

•• الفصل الحادى عشر

كل يوم تذكر القرية الغائبين عنها، أولئك الذين ذهبوا إلى بعيد، حيث لا يعلم أحد، ليقوموا بأحط الأعمال فى خدمة الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس، وفى كل يوم تأتى أنباء من المدينة تؤكد ما سبق من شائعات، تلك الشائعات التى تتحدث عما يفعله جنود الإنجليز ومستعمراتهم من أستراليين وإفريقيين وآسيويين. فهم فى المدينة يغتصبون النساء ويستولون على البضائع من المتاجر العامة، ويضربون المواطنين للتسلية أو لأوهى الأسباب، ويترنحون سكارى فى الشوارع، ينشرون الفساد والانحلال فى أرجاء البلاد، فهم بحق- كما يقول الشيخ عنبة- رسل مجون ودعارة وانحلال، لا رسل مدنية وتحرير للشعوب المستعبدة، ولا يأتى يوم إلا ويتساءل الناس: متى يعود الغائبون؟ متى تنتهى هذه الحرب الطاحنة؟ متى يشرق فجر السلام والحرية والعدالة؟ فالناس لا يكادون يفرغون لأحزانهم القديمة؛ لأن الكوارث دائمًا فى الطريق إليهم، حتى أضحت الكوارث هى الشىء الطبيعى، وتلقيها أمرًا لا مفر منه.

والخــواجــة «ينى» لا يفكر فى شىء من هذا كله، فليس له مغتربون، ولم يقاس مرارة الظلم والفقر والخوف الحقيقى، ولا تحرق النار إلا أنامل القابض عليها، ولقد قرر الخواجة الاستيلاء على محصول القطن الذى جناه كل من استأجر منه أرضًا، واستولى على القطن كله ليضمن سداد إيجار الأرض، وتكدس فى المخزن الخلفى للخمارة كمية ضخمة من القطن، وعندما وزنه، وقدر ثمنه حسبما يروق له، وجد أنه لا يكفى سدادًا لحقه الذى يفرضه هو، واستشار «خفاجة» فيما يفعل، بالطبع كان رأى «خفاجة» أن يطالب «الخواجة» بما تبقى له من حقوق، فعقد «الخواجة» للمستأجرين اجتماعًا عامًا فى خمارته وشرح لهم الأمر، وطالبهم بالعمل على تسديد ما فى ذمتهم له فورًا.

فقال أحد الفلاحين:

- القطن زهيد السعر هذا العام.

وقال آخر:

- والمساحة المنزرعة بسيطة.

وقال ثالث:

- وليس لنا دخل سوى ثمن القطن.

قال الخواجة:

- هذا كلام سخيف.. هذا لا يعنى ضياع حقى.. حتى إن تحت يدى المستندات التى تضمن لى الاستيلاء على مستحقاتى.

وكم كانت دهشة «الخواجة» حينما رأى «عنبة» يقف، كأنما انشقت عنه الأرض، أو قذفت به السماء على حين غرة، وقال عنبة :

- تعلم يا خواجة أن قيمة الإيجار تعتمد أساسًا على ما تغله الأرض، فإذا ارتفع القطن ارتفع إيجار الأرض، هذه بديهة يا خواجة.

قال الخواجة محتجًا :

- أنا أرفض أى كلام منك يا شيخ عنبة.

- لماذا؟

- لأنك لم تستأجر أرضًا.. ولم أطالبك بشيء.. والمشكلة القائمة بينى وبين الفلاحين تخصنى وتخصهم ولا دخل لأحد فيها.

لكن صوتًا جانبيًا هتف :

- لقد وكّلنا «الشيخ عنبة» ليتحدث باسمنا.

فنظر «الخواجة» إلى «خفاجة» نظرة ذات معنى، وقال :

- وماذا يجدى كلام «الشيخ عنبة» إن بينى وبينكم عقودًا موقعة منكم، فمن يدفع يفض إشكاله، ومن لا يدفع فأمامى المحكمة، والقانون هو القانون.

وصاح الشيخ عنبة :

- إنها عقود باطلة.. فأنت تعلم أنهم وقعوها على بياض، وأنت الذى حددت سعر الإيجار فيما بعد بالطريقة التى ترضيك.

وانبعث من حشد الفلاحين هدير صاخب، وصاحوا جميعًا:

- أجل.. أنت فعلت ذلك يا خواجة.

التفت «الخواجة» إلى «خفاجة» الصامت الذى يرمى بنظراته هنا وهناك، ثم عاد يقول:

- ليكن.. لكن القانون فى صفى.. أنتم تعلمون ذلك جيدًا.

وأوشك الجميع أن ينفجروا ضاحكين حينما سمعوا «عبد الغفار الطبال» يقف وسط الحشد ويقول بصوت المنادى على الأشياء المفقودة:

- خروف تائه يا أولاد الحلال.

وحلاوته.. ريال..

لكن خفاجة صرخ فيه صرخة شدت أسماع الشاهدين:

- اخرس يا كلب.. يا أعرج.

وتدلت شفة «عبد الغفار» السفلى، واغرورقت عيناه بالدموع، وقال:

- كانت هذه الأرض أرضنا.. كان جدى يملك أربعين فدانًا فى «حوض الشياخة».. هى أرض الخواجة الآن، لكنها كانت أرضنا.

فلم يطق «خفاجة» صبرًا، أوصلت الحال لأن يقف هذا الأبلة الأعرج المتسول، ويجرى شعور الخواجة، وهو مخلوق تافه لا وزن له، واقترب منه «خفاجة» مسددًا إليه نظرات الوعيد الحاقدة،

حاول «عبد الغفار» أن يهرب وأن يجرى بعيدًا عن نظراته، لكنه تعثر فى الجالسين حوله حتى أمسكه، «خفاجة» بذراعه، وجره بعيدًا ثم قذف به فى عرض الشارع، و«عبد الغفار» يبكى رعبًا وهلعًا. . وما إن عاد «خفاجة» إلى مكانه، حتى سمع «عبد الغفار» يشب ويصيح:

- عجل تائه يا أولاد الحلال.

وحلاوته . . ريال.

ورأى «الشيخ عنبة» أن الموقف يحتاج لمزيد من اللباقة والتروى؛ لأن الهجوم والشدة لن يؤديا إلى نتيجة حسنة، فرفع صوته قائلاً:

- لنناقش الأمر على صعيد آخر. لنفرض أن القانون فى صفك، لكنك ترى أن الفلاحين مساكين. . وهم فى أسوأ حال. . القطن كله لا يكفيك سدادًا للإيجار. . فماذا يفعلون طوال العام، وقد استولت السلطة على أقواتهم وبهائهم؟ أنت واحد منا يا خواجة، ومواطن فى هذه القرية التى أحبتك، وأتاحت لك فرصة النمو والثراء، وعاملتك أشرف معاملة. . أنت إنسان. . والإنسان أخو الإنسان، يقول حبيبى «جمال الدين»: «إن الأديان الثلاثة كل أساسها واحد» أساسها الحب والتعاون والصفح. . إنه ليعز عليك- لا شك- أن ترى الفلاحين يأكلون التراب، ويبيتون على الطوى، ثم تطلب منهم المزيد. . ثم إنك لن تخسر شيئًا. . سيقل إيرادك بعض الشىء، لكن سيبقى لك دخل كاف. . إننا نناشدك يا حضرة

الخواجة أن تكون رحيمًا بهؤلاء المساكين . . ونرجو فى العام القادم أن تنتهى الحرب، ويسود السلام ويعوضك الله خيراً . . فماذا قلت؟

لم ينبض قلب الخواجة بنبضة حب واحدة، كلما يتصور أن دخله سينقص تزداد النار فى قلبه اشتعالاً، ويغشى على بصره، فلا يرى الفلاحين الذين أمامه إلا طائفة من اللصوص أو المتآمرين يريدون نهبةً واستلاب ما يملك، ولا يرى فى «الشيخ عنبة» إلا زعيمًا شرسًا لعصابة من الخطرين، فتمالك الخواجة أعصابه، وقال:

- كلامى واضح . . القانون هو القانون.

وجاءهم صوت لدى عتبة باب الخمارة يقول:

- ما هذا الكلام الذى تقوله يا خواجة؟

ونظر الناس، فإذا بحضرة العمدة يقبل، معتمدًا على عصاه المعوجة، ثم استطرد العمدة قائلاً:

- إن موقفك هذا يثير العجب . . إن الخسائر التى حلت بالقطر عامة، وبهذه القرية خاصة، يجب أن نتحمل أعباءها جميعًا . . لماذا يضحى الفلاحون بأقواتهم وبهائهم وأبنائهم المغتربين . . وأنت . . أنت . . الرجل المقتدر المالى . . لماذا لا تحتمل التضحية وتسهم فيها بنصيب؟

وغمرت الفرحة وجوه الفلاحين، ولمعت فى أعينهم أشعة النصر، وها هو العمدة ينضم إلى صفوفهم ويقف إلى جوارهم دون خوف، وصاح «عبد الغفار الطبال» الذى جاء يتتبع العمدة هاتفًا:

- يعيش حضرة العمدة.

يعيش «الشيخ عنبة».

يسقط الظلم.

وساد الهرج والمرج، واختلطت صيحات الناس بضحكاتهم، وتعليقاتهم، فوضع الخواجة يديه في جيوب سترته، بعد أن عدّل من وضع قبعته على رأسه، ونظر حتى خفت الضجيج، وقال:

- إنني لأعجب يا حضرة العمدة يا حامي القانون كيف تدعوني إلى العبث بالقانون.. إن كلامك هذا معناه تحريض الأهالي، ودعوتهم إلى العصيان والتمرد.. ولن يكون هذا التصرف إلا وبالاً على القرية بأسرها.. حسبتك تقدم لهم النصح بأن يوفوا بالتزاماتهم التي لافكاك منها، فإذا بي أراك تدعوني للتنازل عن حقي، وتشجع الفلاحين على الفوضى وأكل أموالي بالباطل.

وصمت برهة ثم قال:

- انتهى الاجتماع.. فلتنصرفوا الآن.. وسأتخذ كافة الإجراءات القانونية.. لن أسكت عن حقي، مهما كان الأمر.

وما إن أدار الخواجة ظهره لهم، حتى قال «عنبة» للجموع:

- خير لكم أن تذهبوا إلى السجن من أن تنصاعوا للظلم الذي يتستر في زي القانون كذبًا وخداعًا.

كان الناس ينصرفون، ولا حديث لهم سوى موقف العمدة المشرف، وتعرض مركزه للخطر من أجلهم، وكان الجميع يثنون على «الشيخ عنبة» والد الجميع، صاحب العقل الصافى، والقلب الكبير، وابتسموا فى حب وهم يستعيدون موقف «عبد الغفار الطبال» وتصرفاته، التى امتزجت فيها الحقيقة بالخيال، وكان فى كلتا الحالتين معبراً تعبيراً صادقًا عما يجيش فى صدورهم، لكنهم تألموا كثيراً وهم يتذكرون «خفاجة» ووقوفه إلى جوار «الخواجة»، ونظراته المتوعدة لهم، وانسلاخه عن الإجماع الشعبى، واعتبروه بذلك خائنًا للقرية التى تضم بيته إلى صدرها . . خائنًا للناس الطيبين الذين لم يتعرضوا له يومًا بالأذى . . بل بالغوا فى طيبتهم، وتستروا على جرائمه، فتمادى فى غيه واستبداده .

عندما اختلى الخواجة بخفاجة . . التفت إليه قائلاً :

- ما رأيك .

قال خفاجة :

- انتهى الأمر، ووجدت الحل . . إن العمدة يمثل خطراً حقيقياً . . وانضمامه للناس يشد من عضدهم . . ويجعل الغلبة لهم بالحق أو بالباطل، وفى ظل هذا الالتحام الشعبى يستطيع العمدة أن يفعل أى شىء . . يمكن أن يؤذيك يا خواجة . . ويستطيع أن يقضى علىّ، ولهذا قررت .

قال «الخواجة» فى لهفة :

- ماذا قررت؟

- سأقتل العمدة.

- وعنبة؟

- قتل العمدة فيه أكثر من معنى.. إنه القضاء على أكبر رأس.. وفيه تحطيم لوحدة الفلاحين.. وبث الذعر في قلوبهم.. سينكمش «عنبة» من تلقاء نفسه.. وستأخذ مستحقاتك كاملة يا خواجة.. وأنا سأحيا.. سأبقى خفاجة الذى يهابه الجميع.. ولن يحوجنى الأمر بعد ذلك إلى الكلام ستكون نظراتى وحدها كفيلة بتحقيق كل ما أرمى إليه.

وصافحه «الخواجة» قائلاً:

- هذا عين الصواب.

كان «الشيخ عنبة» يفكر فى أمر خفاجة تفكيرًا جديًا هذه المرة، لماذا لا يجرب حظه معه، ويحاول هدايته.. وتوجيهه إلى الطريق المستقيم؟ ألا يمكن أن يستجيب لكلمة الحق والضمير، ويتوب إلى الله كما تاب حضرة العمدة.. ويطلق انحرافه وخطاياه، ويعود إلى أهل قريته؟

واتخذ «الشيخ عنبة» سمته إلى بيت «خفاجة» فى المساء، ولقيه الرجل مرحبًا.. وجلسا يحتسيان أقداح القهوة صامتين.. وأخيرًا قال عنبة:

- جئت ناصحًا.

- مرحبًا بك.

- أهلك أولى بك.

- هذه بديهة.

- لكنك تخالف البديهيات يا خفاجة.

- مَنْ؟ أنا؟

سدد إليه «عنبة» نظرات لا تلين، وقال فى قوة:

- أنت.

- لكنك تظلمنى يا «شيخ عنبة»، أنا لم أتعرض لك بأذى طول حياتى.. ولك فى قلبى منزلة كبرى.

- لقد آذيتنى كثيرًا يا خفاجة.

- مستحيل.. متى كان ذلك.

- إن إيذاء أهل القرية إيذاء لى.. وقتل النفس التى حرم الله إهانة كبرى لى.. والوقوف إلى جانب «الخواجة» فى مظالمه واستغلاله إيذاء لى.. بل لنا جميعًا.. أتنكر ذلك؟..

- لا أنكر.. إن ما أفعله شىء يخصنى.

- كلا.. إنه ينعكس بالضرر على الجميع.

- وهنا نختلف «يا شيخ عنبة» . . الضرر فعلاً سيقع على الجميع وسيكون سببه أنتم لا أنا ولا «الخواجة» .

- أنت مُصرٌ على ما تفعل .

- أجل ومؤمن به . . وهذه مسألة لن يجدى فيها النقاش ولا المواعظ . . عش ودع غيرك يعش يا شيخ عنبة .

قال عنبة :

- الشيطان يزوق لك المنى .

- بل أنا أخدع الشيطان نفسه .

- هذا غرور .

- أنت تسبنى .

- أنا لا أخاف .

- لكنك فى سن والدى رحمه الله .

- إذن فأنت ترفض العودة .

- ما زلت بينكم .

- أنت تعرف مرمى كلامى يا «خفاجة» .

- وأعرف أنه انتهى عصر الملائكة .

- وداعًا .

- إلى اللقاء يا شيخ .

- لا لقاء . . لأنى لا أضع يدى فى يد من عصى الله .

وانسكبت دمعة على خد «عنبة» ولكن لماذا يحزن؟ لقد نجح مع العمدة، وفشل مع خفاجة، والله وحده قادر على أن يغير الأحوال، ويهدى إلى الحق، ولن ينتصر الشر . . وعندما التقى «الشيخ عنبة» بالعمدة «والشيخ عبد العزيز شلبى» قال لهما :

- لقد مات .

فصاحا بصوت واحد :

- مَنْ؟

- خفاجة .

- مَنْ قتله؟

- لم يمت جسمانيًا . . لكنه باع نفسه للشيطان . . لقد فقدناه ولن يعود إلينا، إنه يفلسف انحرافه، ولعل قلبه قد اسود تمامًا حتى لم تعد تنبض فيه بارقة أمل أو خير . «خفاجة» رجل شرير .

قال العمدة يائسًا .

- أنا أعرفه . . لن يترك «الخواجة» ينهزم، ولسوف يفعل شيئًا . . شيئًا خطيرًا .

قال عبد العزيز شلبى :

- ما هو . . ؟

- لا أدرى . . لكن يجب أن نفتح أعيننا جيداً، وإلا ضعنا . . ولتحترس لنفسك يا «عنبة» .

فتمتم «عنبة» قائلاً :

- يقول حبيبى : «لا حياة للجسم إلا بالروح . . وروح المعيشة الإنسانية النبوة والحكمة» . . خفاجة لم يستجب لكلمة الحق، ولم ينصح لحكمة الله . . لقد مات قلبه . . ولم يبقَ منه إلا اللحم والعظم يحركهما الشيطان كيف شاء .

والآن تصبحون على خير . . سلام عليكم .



•• الفصل الثانى عشر

أظهرت القرية عن بكرة أبيها أسفها العميق، واستبشاعها الكبير لتلك الجريمة الغريبة، وساد الوجوم الوجوه، ودمعت العيون حسرة وحزنًا، ونبت فى القلوب حقد هائل، لقد وجدوا «عبد الغفار الطبال» مخنوقًا فى كوخه الحقير، كان ملقًى على حصير مهترئة، وحملقة الرعب فى عينيه الجامدتين، وتقلصات ملامحه المذعورة، وبشرته الزرقاء توحى كلها بالكآبة، وكان العبث واضحًا بالكوخ، فالأشياء القليلة التى يمتلكها «عبد الغفار» مبعثرة، الجوال الذى يضع فيه الأرغفة، والصرة التى تحتوى على الملح، وبعض الأوانى الفخارية والبلاص، حتى أرض الكوخ محفورة فى عدة أماكن، وكان واضحًا أن جريمة القتل قد ارتكبت بدافع السرقة، فقد كان يشاع عن «عبد الغفار» أنه يمتلك ثروة لا بأس بها جمعها من التسول والصدقات، وقد يكون عجبًا ألا تشير أصابع الاتهام إلى «خفاجة»، لكن «خفاجة» -كما هو معروف ومؤكد- لا يفكر فى قتل الضعفاء والمتسولين من أمثال «عبد الغفار»، إن «خفاجة» يعتبر قتل «عبد الغفار» حطة ومهانة تلحقان بكرامته وسمعته،

وصيده دائمًا ثمين، ولا يضرب ضربته إلا لسبب قوى، أو بثمن غال. . إن «عبد الغفار» عدو تافه، والانتصار عليه لا يعد انتصارًا فى نظر «خفاجة»، والناس يعرفون ذلك، حتى العمدة نفسه لم يفكر فى اتهامه، «والشيخ عنبة» لزم الصمت، وتمتم: «الله أعلم. . سبحانه. . يعلم دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، وفى الليلة الظلماء». . وكانت كلماته المسجوعة تلك. . تعبيرًا شاملاً عن الموقف. . ولم يكن من المعروف أن «خفاجة» وحده هو الإنسان الشرير فى القرية كلها. . فالشر موجود فى كل حارة. . وللشيطان أكثر من بيت يلهو به، ويدبر مكائده. والحرب قد أحالت الناس إلى وحوش، والفقر يدفع إلى أفظع الجرائم، واستبداد السلطان ينعكس على الرعية، فيتحول بعضهم إلى مستبدين بدرجة أقل، وفى مجال أضيق، والفساد كالوباء. عندما يجد الجو المناسب. . ينتشر. . ويكثر عدد ضحاياه. . وقال «خفاجة» وقد علم بالخبر:

- إنه لشىء مؤلم. . الرجل لا يقتل إلا رجلاً مثله. . وقاتل «عبد الغفار» تافه حقير مثله، أقسم لو عرفته لأدبته. . ولا بد أن أعرفه يومًا ما.

وقهقه «خفاجة» وهو يقول:

- القاتل يريد أن يمضى على منوالى. . ولكن ليس تفكيرى ولا مثالياتى. . لا تضحكوا فالقتل فن. . والقاتل لا بد أن يكون ذا

ضمير . . ما ذنب «عبد الغفار» المسكين؟ عشرات غيره يستحقون القتل هنا . . لا شك أن الجانى -كالمجنى عليه- ضعيف تافه مجنون .

وبالرغم من التحريات الدقيقة . . والتفكير المتصل . . لم يعثر المحققون . . ولا العمدة على خيط من نور يرشد عن القاتل الحقيقى . . ومن ثم لفوا «عبد الغفار» المسكين فى أكفانه . . وواروه التراب . . وقيدت الحادثة ضد مجهول ، وعاد الصمت الحزين يلف القرية من جديد . . وأخذ مقرئ القرآن يردد فى صوت دامع :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢] .

وجلس «ينى» مع «خفاجة» ليلة المأتم . . وبينهما زجاجة الويسكى ممتلئة لنصفها . . وكأسان فارغان . . وأخذ «الخواجة» يصب الخمر ، وسيما القلق بادى على وجهه ، لم يكن «الخواجة» حزينًا على فراق «عبد الغفار» بل إنه كان أكثر الناس سعادة بحدوث هذه الجريمة ، «فعبد الغفار» كان يضايق «الخواجة» لحد بعيد ، ويسدد إليه كلمات جارحة متسترًا خلف بلاهته الظاهرة ، والغريب أن «عبد الغفار» المتشرد الأبله كان يرفض صدقات «الخواجة» ، ويشمئز منها . . و«الخواجة» لا ينسى ما فعله «عبد الغفار» عند الاجتماع الكبير الحاسم الذى عقده بالأمس . . لكن قلق «الخواجة» كان له مصدر آخر . . إن «خفاجة» لم يقتل «عبد

الغفار» . . ومعنى ذلك أن هناك قاتلاً آخر . . فى القرية إذن هناك رجال يستطيعون أن يقدموا على جريمة القتل . . إذن «فالخواجة» فى خطر . . وعليه أن يبحث عن القاتل لا ليشى به . . أو يسوقه إلى حبل المشنقة جزاء فعلته . . ولكن ليضمه إلى صفه . . ويأمن جانبه . . لم يعد «خفاجة» وحده بقادر على حمايته . . وفهم «خفاجة» ما يعتمل فى «الخواجة» ، فأغضى قليلاً ، وأخذ يتجرع الكئوس حتى جرى الدم فى وجهه . . وبرقت أشعة شيطانية فى عينيه وقال :

– يبدو أنك حزين من أجل «عبد الغفار»؟

قال ينى :

– إننى ألمح أشياء جديدة فى القرية . . وتنذر بشر مستطير .

– لكنى أعتقد أنها مسألة تافهة .

– هذه كلمات يعوزها الدليل .

وأخذ «خفاجة» يصب بنفسه هذه المرة . . ويقول :

– أعترف أنى خدعت .

– كيف؟

– هذا الحقير «عبد الغفار» لم يكن يملك إلا بضع ريالات .

– ما معنى ذلك يا خفاجة؟

وابتسم خفاجة فى خبث، وقال:

- ليس له سوى معنى واحد، لتكن مطمئنًا.. لا جديد فى القرية.

- معنى ذلك أنك قتلت «عبد الغفار»؟

- ولم أجد مائة جنيه كما كنت أتوقع.. وجدت بضعة ريالات لا تكفى لشراء خروف صغير.

ثم أخذ خفاجة يترنم بصوت أجش:

- خروف تائه يا أولاد الحلال.

وحلاوته.. ريال.

ها.. ها.. ها..

هذا الأعرج المأفون جعلنى أضحوكة.. لشد ما كرهته يوم الاجتماع، لقد أقسمت أن أضع حدًا لحياته.. كان تافهًا ولا يساوى فى نظرى بعوضة.. لكن ألم تجرب يا خواجة مضايقة بعوضة ذات مساء.. حدث لى ذلك عشرات المرات.. بعوضة تأتى، وتزعجنى بطنينها وقرصاتها فأدفعها عن وجهى دون جدوى، وتحرمنى النوم والراحة.. تلك هى القضية.. «عبد الغفار» لا يخرج عن كونه بعوضة وقد قاسيت من مضايقاته الكثيرة، ومن ثم لم أجد مناصًا من القضاء عليه، لعلى أستطيع النوم، وأنجو من طنينه وقرصاته.. معقول؟

ونظر إليه «الخواجة» فى راحة، وأشرق الفرح فى عينيه، وآمن الآن أن لم يولد جديد فى القرية، وأن القاتل هو «خفاجة» ولا أحد غيره، وأنه لا مبرر للقلق الذى انتاب «الخواجة» وأزعجه منذ ارتكاب الجريمة، وهتف «الخواجة» فى مرح صبيانى:

- معقول جدًا.

ثم قرع كأسه فى كأس «خفاجة» وقال متفائلاً:

- فى صحة البعوضة.

وضحك الاثنان.. ضحكا وقد لعبت الخمر برأسيهما حتى كادا يستلقيان على ظهرهما من الضحك ثم أردف «خفاجة»:

- وهناك نقطة قد تغيب على ذكائك يا حضرة الخواجة المحترم إن الشك فى وجود قاتل غيرى مسألة جوهرية وحيوية جدًا.. لسوف تنصرف الأفكار عنى، وتبحث عن رجل آخر.. وعندما أسفح دم العمدة لن تنحصر الشبهات فىّ وحدى.. لماذا؟ لأنى لست القاتل الوحيد.. أتفهمنى؟

وتمتم الخواجة:

- أنت بارع.

- هذا لا يكفى.

وسأعطيك زجاجة ويسكى كاملة.

- دائمًا لا تتنازل عن بخلك.

- وخمسة جنيهات هدية يا «خفاجة»؟

- ما أرخصك يا «عبد الغفار» حيًا وميتًا . . خمسة جنيهات ثمنًا لرأس «عبد الغفار» يا خواجة؟ . أنت ظالم . . ليكن . . لكن ما ثمن رأس العمدة؟ إن رأسه غالٍ . . ستموت بعدها رءوس كثيرة دون أن ألمسها . . لا شك أنك تعرِّف ماذا أقصد . . خواجة . . أنت حمار كبير .

فضحك الخواجة ، وأبدى ابتهاجه للنكتة برغم وقاحتها ، وتصغيرها لشأنه ، لكن الخواجة فى حقيقة أمره كان خائفًا . إن «خفاجة» أصبح رجلاً خطيرًا ، و«ينى» الآن لا يخاف على نفسه منه ، وبعد أن يقتل العمدة ، لن تقف قوة فى طريقه . إنه منذ الآن يملى شروطه على «الخواجة» ، فماذا يفعل بعد أن يتم النصر له وللخواجة؟ لسوف يأكل أحدهما الآخر ، و«خفاجة» واسع المطامع . . واسع الدهاء قاسٍ لا يرحم . . والخواجة يجب أن يحتاط لنفسه منه . ونبتت فى رأس الخواجة فكرة جهنمية . . وقرر بينه وبين نفسه أن يتخلص من «خفاجة» بأى ثمن . . لكن متى يكون ذلك؟ بعد أن يقضى على العمدة . . و«الخواجة» لن يعجز ، يستطيع أن يتصل بأصدقائه الإنجليز ، أو بصديقه مأمور المركز ، والرشاوى تصنع المستحيل ، وعندئذ يمكن إصدار أمر باعتقال «خفاجة» فخطورته على الأمن ، أو تلفيق أى تهمة له ، وبهذا يتخلص الخواجة من العمدة ومن «خفاجة» كما تخلص من «عبد

الغفار»، وفى المستقبل سيعمل على التخلص من «الشيخ عنبة» بطريقة أو بأخرى، وشعر الخواجة بارتياح مباغت، وأيقن أن الدنيا كلها طوع أمره، وأنه ليست هناك قوة فى الوجود يمكنها التصدى له، أو اعتراض مشيئته.. وهتف الخواجة فى فرح حقيقى:

– سأعطيك عشرين جنيهًا يا «خفاجة».. تحت الحساب.

– وعندما تتم المهمة؟

– أعطيك ثلاثين أخرى.

فابتسم «خفاجة»، وأخذ يتطوح من أثر الخمر، ويقول:

– ليس بين الكرام حساب.

●●●

•• الفصل الثالث عشر

لازم العمدة فراشه، وشعر بثقل وضع فى الجانب الأيسر من جسده، وكان لهذا السقم الذى أصابه أثر عميق فى نفسه، حاول أن يقاوم المرض فكان الداء أقوى منه، لقد مرت به أوقات من قبل كان لا يعتقد أن هناك من يستطيع قهره، كان منتشيًا بقوته وماله وسلطانه، وكانت صيحته تثير الخوف فى قلوب الرجال من حوله، أما اليوم فهو شىء آخر . . حتى لسانه لا يطاوعه، الكلمات هى الأخرى تخرج ثقيلة بطيئة متعثرة، وكاد البكاء يغلبه وهو يستقبل «الشيخ عبد العزيز شلبى» والشيخ «عنبة»، لكنه تماسك، وحاول أن ينهض لاستقبالهما ففشل، فربت «عبد العزيز» على يده فى حنان وأقسم ألا يتحرك من مكانه، كان الزائر رقيقًا مواسيًا فى حديثه، وكان الألم والعزاء باديين فى نظراته ونبراته، وتمتم العمدة فى انفعال:

– أنت أخى يا عبد العزيز . . ماذا لو تم ما دُبِّر لك، وذهبت بعيدًا مع المحاربين؟ لا شك أنى كنت أشعر الآن بالضنك والعذاب النفسى . . إننى أحمد الله أن أراك بجوارى، وسعادتى بقربك منى

تجعلنى أنسى مرضى . . لقد أنرت قلبى بكلماتك المؤمنة . نِعم الأخ أنت . . إننى أدرك الآن من أنتما .

كان يتكلم كرجل يودع الحياة . . إن ضعفه المفاجئ، وعجزه أمام المرض، قد أورثه حساسية مفرطة، وزرع فى قلبه بعض اليأس، ولم يخفَ ذلك على «الشيخ عنبة» الذى أخذ يحدثه عن الأمل والثقة فى الله، ويمنيه بالشفاء العاجل لكن العمدة قال فى شك :

- هذه مقدمات مرض الشلل والعياذ بالله .

فرد عبد العزيز شلبى :

- فال الله ولا فالك يا رجل . . قل كلامًا غير هذا، إنها مجرد «رطوبة» سرعان ما تزول بقليل من الدفء والراحة .

همس العمدة فى ألم :

- لن نعيش أكثر ما عشنا . . إنها أيام مكتوبة .

وأفلتت من بين أهدابه دمعة لمحها «الشيخ شلبى» الذى بادر قائلاً :

- أتبكى؟

- أبكى على عمرى الذى ضاع فى العصيان . . إننى أتمنى الآن أن أعيش مائة عام أخرى . . أنا لا أعترض على مشيئة الله . . ولكنى أريد الحياة لأكفر عن خطاياى .

قال «الشيخ عنبة» فى ثقة :

- ستعيش .

فنظر العمدة إليه فى شك قائلاً :

- سترى . . ثم لا تنسَ أن الإنسان بعد توبته الصادقة يولد من جديد . . التوبة النصوح تجبُّ وتمسح ما قبلها من خطايا . . عندما يلقى الإنسان الله بقلب تائب يفسح له مكانًا طيبًا رحبًا فى جنته .

- إننى أشم من كلامك رائحة الإيمان والأمل . . وأشم رائح الموت . . آه . . لك ألف حمد يا رب .

فتدخل «الشيخ شلبى» قائلاً :

- ما رأيك فى السفر إلى القاهرة؟

قال العمدة فى لهفة :

- وما جدوى ذلك؟

- نزور أهل البيت ، ونغير الجو . . ثم تعرض نفسك على أحد أطبائها المهرة .

قال عنبة :

- فكرة لا بأس بها .

وقال شلبى :

- ولن يعترض «عنبة» على مصاحبتنا .

وتمتم العمدة:

- الطبيب هو الله . . والشافى هو الله . . لكن قلبى منشرح لهذه الفكرة.

فأردف «عبد العزيز شلبى»:

- وأحمد أفندى ابنى . . يقيم فى مسكن صالح بالسيدة زينب ويعرف الكثير عن القاهرة وأطبائها.

وارتسمت أمارات الاطمئنان على وجه العمدة، وألقى برأسه على الوسادة الناعمة، وقال ونظراته إلى سقف الحجرة:

- لا مانع.

***

وذات يوم كان «أحمد» جالسًا فى حجرته بحى السيدة زينب، وأمامه أوراق ومساطر وبراجل ومناقل، والعرق يتساقط على جبهته، كان يعمل لكن ذهنه كان منصرفًا إلى أحداث اليوم، إن ما حدث شيء فريد من نوعه لم يسمع به أحد منذ سنوات، لقد فكر السلطان «حسين كامل» . . فى زيارة مدرسة الحقوق . . وعملت الترتيبات اللازمة التى تليق بعظمة السلطان وهيبته، كى يقوم الطلبة والأساتذة الأجانب والموظفون باستقباله استقبالاً رائعًا مناسبًا . . ولم يدر بخلد أحد أن شيئًا ما يدبر فى الخفاء، ولقد فكر الطلبة فى الأمر، إنهم يعرفون السلطان جيدًا . . يعرفون أنه يحكمهم اسمًا

والإنجليز هم الحكام الفعليون، ويعرفون أن السلطان رضى بالاحتلال وقَبِل الحماية -تلك الكارثة الكبرى- ولم يعترض على الإجراءات الجَائرة التى يتخذها قائد القوات فى مصر، تلك الإجراءات التى انتزعت الرجال والأقوات والحريات.. وحق الحياة الشريفة.. وما السلطان فى نظر أفراد الأمة التعساء إلا خادمًا أمينًا للإنجليز.. فكيف يستقبلونه ويصفقون له، ويهتفون باسمه.. إنهم إن فعلوا ذلك، وهم شباب الأمة، وعنصرها الواعى المثقف، والمؤتمن فى الغد على مستقبلها وأمورها، إن فعلوا ذلك فقد أثبتوا على أنفسهم الرضا بالذل والعار.. وأصبحوا شركاء فى الإثم الكبير.. والخيانة المشينة، وذهل المسئولون عندما حان موعد زيارة السلطان.. لقد وجدوا الطلبة قد انصرفوا، والمدرجات بمدرسة الحقوق تكاد تكون خاوية على عروشها.. ورأى السلطان بعينى رأسه تلك المظاهرة الصامتة.. أو الاحتجاج الصارخ.. وأيقن أنه أصبح مكروهًا منبوذًا برغم الحراس والصولجان وكرسى السلطنة.. وكلمات الرياء والمديح والقصائد الطنانة التى تمجده.. أدرك السلطان الحقيقة.. وأدركها المسئولون، فانعكست عليهم ضيقًا وحنقًا.. فصدرت الأوامر بالاعتقال والفصل والاضطهاد.. كان «أحمد» يفكر فى كل ذلك، وهو منكب على أوراقه، وكان حزينًا لأنه لم يكن واحدًا من أولئك الرجال الذين أقدموا على موقفهم البطولى وهم يعلمون أنهم يعرضون أنفسهم بذلك لأخطار كثيرة أكيدة، لكنه كان يعزى نفسه بأن المعركة

قائمة، وتحديًا لأولئك الذين يعتدون على حق الحياة الشريف المقدس، وفكر «أحمد» فى أن يكتب خطابًا «للشيخ عنبة» يشرح له هذا الأمر، وخاصة أن الصحف لم تكتب عن حقيقة الزيارة وما تم فيها، وإنما أحاطتها-زيفًا وكذبًا بمظاهر الروعة والحماسة.

لكن الباب يدق.

ويهرول «أحمد» آملاً فى استقبال صديق له يسليه ويستذكر معه الدروس، ويناقش معه أمور السياسية.. لكنه يفاجأ بأبيه والعمدة «والشيخ عنبة».. و«صابرين» بنت العمدة.. فيرتجف ويتلعثم، ويبدو الخجل على ملامحه الغضة.. لكن أباه يسرع قائلاً:

- تفضل يا حضرة العمدة.. لا بد أن تستريح أولاً. فلقد كان السفر مرهقًا.

***

ظل «أحمد» أفندى أغلب الوقت مرتبكًا.. لا يستطيع أن يلم شتات نفسه.. ربما حلم مرارًا أن تأتى «صابرين».. وأن يضمهما مسكن واحد. وأن تقع عيناه عليها.. وتقدم له الطعام والشراب.. وتتحدث معه، لكنه لم يكن يتوقع أن يتحقق حلمه على هذه الصورة.. وإن كان الأمر فى حد ذاته لا يستأهل كل الغرابة. فمرض العمدة مسألة ظروف.. واصطحابه لصابرين كان لمجرد خدمته.. وإعداد لقمته.. والسهر على راحته.. فضلاً عن أنها كانت تحلم بزيارة القاهرة المدينة الكبيرة ذات المآذن والقباب

والمبانى الشاهقة، الغاصة بالأفندية والباشاوات والمخترعات والكهرباء وكل الأشياء الجميلة.

وكان «أحمد» يذهب فى الصباح إلى مدرسة المهندسخانة.. ويخرج الرجال الثلاثة من بعده إلى الزيارات وإلى الطبيب ثم يعودون وقت تناول الغداء. ويعود «أحمد» وقت العصر، ويرافقهم إذا ما خرجوا فى المساء، وطول الوقت الذى يقضيه بالمسكن.. يحاول جاهدًا أن يداوى انفعالاته.. ويتجنب التحدث مع «صابرين» بل يخشى مجرد النظر إليها.. إلى أن عاد ذات يوم وكانت «صابرين» وحدها.. والرجال الثلاثة فى الخارج، ووجد «أحمد» نفسه غارقًا فى بحر من الخجل.. قصد حجرته ومكث فيها فترة ليست بالقصيرة، كان يفكر: أيسقط ما بينهما من كلفة، وينطلق فى الحديث معها؟ لكن قوة خفية تشده إلى حجرته.. وترغمه على الوقوف مكانه لا يتحرك.. لكن «صابرين» تدخل عليه.. وعيناها تلمعان بالفرحة:

- هل أعد لك الغداء؟

قال منكسًا رأسه:

- سأنتظرهم.

- لن يعودوا قبل الثامنة مساء، الطبيب سوف يجرى بعض الفحوص لأبى ويبدو أنها ستستغرق وقتًا طويلاً.

ولما لم يجب بكلمة . . قالت وهى تعود أدراجها :

- لسوف أحضر لك شيئًا تصبر نفسك به .

لم يجد لديه أدنى شهية لتناول الطعام، وأخذ يلوك لقيمات فى فمه دون أن يستطيع استساغتها أو ابتلاعها، ثم وجد نفسه يقول :

- وأنت ألا تأكلين؟

- طعامى هنا بالمطبخ .

- لنأكل معًا .

- عيب كبير . . لم أتعود على ذلك .

تريد أن تقدم دليلاً على أدبها واستقامتها، وتريد أن تثبت له أنها زوجة صالحة للمستقبل، وهو يعلم أن من حسن صفات الفتاة أن تحتجب في بيتها، ولا تؤاكل الرجال من أفراد أسرتها، فما بالك بمن رشحه قلبها للزواج!

وهبطت عليه شجاعة مفاجأة لا يدرى كيف جاءته، وهتف :

- ستأكلين معى وإلا أتيت لآكل معك فى المطبخ .

ويبدو أنها سعدت لدى سماعها لعبارته الأخيرة، فقد ابتسمت، وإن أخفت ابتسامتها، ثم قالت :

- وإذا تصادف وقدموا الآن، فماذا أفعل؟

- أنت لم ترتكبى جريمة . . إننا نأكل .

وأثار هذا الحوار فى ذهنيهما عديداً من المشاعر الحلوة الشجية، إنهما يسرقان لحظات هنيئة، ليس فيها ما يخجل، لكنها -بالنسبة لمثالياتهما- تعتبر مغامرة كبرى. . وأية مغامرة!

كان «أحمد» يغسل يديه بعد أن تناولا الطعام، ووجهه لصنبور المياه حينما سمعها تقول:

- زارنا ابن خالى.

- هيه.

- وكان يريد شيئًا.

- أى شىء؟

- لشد ما انزعجت.

لم يكن غبيًا. . فقد أدرك أنها تريد أن تلمح له إلى موضوع الزواج. . ومع ذلك فقد لزم الصمت. . لكنها قالت:

- وكيف لا أنزعج. . وقد جاء يطلب يدى. . ويلح فى سرعة إتمام الزواج؟

قال «أحمد» دون أن يغادر مكانه أو يدير وجهه:

- وأبوك؟

- وافق.

عندئذ أدار إليها وجهه. . فلمحت فى عينيه الضيق. . والحيرة. . وتمتم:

- مستحيل.

- ولِمَ لا؟ إن أبى لا يعلم عنك شيئًا يتعلق بى.

- لكن الوقت لم يحن بعد.

قالت فى قلق:

- هذا ما حدث.. ويجب أن تتصرف.. وإلا انتهى كل شىء.. ستعود فى عطلتك الصيفية.. فتجد أن... أن.. ماذا أقول؟

فهز رأسه قائلاً:

- أفهم كل شىء.

ودق الباب.

ودخلوا.

كان «أحمد» يستمع إلى أحاديثهم الخاصة بالطبيب.. وهو لا يكاد يعى منها شيئًا.. لكنه علم أخيرًا أن حضرة العمدة مصاب بارتفاع فى ضغط الدم.. وأن الأمل فى شفائه كبير.. وقد يعود إلى حالته الطبيعية فى بحر أسبوعين على الأكثر.. وأنه لم يعد هناك داعٍ لبقاء الرجال الثلاثة بالقاهرة أكثر من ذلك.

●●●

•• الفصل الرابع عشر

كان التحسن الذى طرأ على صحة العمدة عقب عودته مدعاة لارتفاع روحه المعنوية، وإقباله على الحياة من جديد بروح طيبة، وأمل كبير . . وكانت فرحته بالتحسن فرحة طفل يتيه بثوبه الملون الجديد، فقرر أن يسافر إلى أحد الكفور المجاورة لزيارة صهره، فركب حمارته الأصيلة، يتبعه شيخ الخفراء لاهثًا، وقضى زيارته، ثم اتخذ سمته إلى قريته بعد الغروب بقليل، وفى منتصف الطريق كانت تقوم قبور القرية المجاورة، ترتفع بينها أشجار الجميز الضخمة، ونبات الصبار الشائك، وبضعة نخيل، وكان لصمت القبور وجلالها إيحاء غريب حزين، وعند محاذاتها هتف العمدة: «الفاتحة لأمواتنا وأموات المسلمين كافة»، وقبل أن يردد الآيات الكريمة جاءه صوت أجش ساخر، صوت يعرفه تمام المعرفة، وقال صاحب الصوت:

- لتقرأ الفاتحة على روحك أولاً.

ونظر العمدة عبر العتمة الخفيفة، فلمح «خفاجة» يهرول من خلف كوخ صغير من القش، وبيده غدارته، وكاد العمدة يقع

مغشيًا عليه من فوق حمارته لولا أنه تماسك، وتسمر شيخ الخفراء مكانه لا يستطيع حراكًا، وهتف العمدة بصوت راعش متوسل:

- حرام عليك يا «خفاجة».

- حرمت عيشتك أيها الكلب.

- أنا لم أسئ إليك يا ولدى.. أنا صاحب عيال.

فقهقه «خفاجة»، وسدد غدارته صوب العمدة، والعمدة يرتجف، وأخذ يتمتم بالشهادتين شاحب الوجه، وأغمض عينيه منتظرًا المصير المؤلم.. إنها لحظات لكنها بدت وكأنها دهر بأكمله، كان العمدة يتوقع دوى الرصاص لكن طنينًا هائلاً كان يسد سمعه، وتطوح العمدة من فوق حمارته، وارتمى على التراب، ثم نظر فإذا بخفاجة يعبث بغدارته، ويحاول فك بعض أجزائها وقد انتابته موجة من الضيق والاضطراب، وأخذ العمدة يتحسس جسده، كان يظن أنه قد أصيب، لكنه لا يجد الآن أى أثر لإصابة.. ماذا جرى؟ لقد حدث ما يشبه المعجزة.. إن غدارة «خفاجة» قد تعطلت، وكالغريق الذى يبحث عن قشة يتشبث بها وسط الأمواج الهائجة اندفع العمدة واقفًا، ونظر إلى شيخ الخفراء المسمر فى مكانه، وهتف:

- أطلق الرصاص ياشيخ الخفراء.

فقهقه «خفاجة» ثانية، وصرخ:

- وهل يستطيع أن يفعلها؟

ولم يكف «خفاجة» عن الحركة وهو يحاول إصلاح غدارته، ولم يزايله الارتباك الذى استولى عليه، وهتف العمدة مرة أخرى:

- إنى آمرك . . أطلق الرصاص يا شيخ الخفراء.

لم يزل الطنين القاسى يملأ سمع العمدة، ولم تزل الرجفة الشديدة تسيطر على كيانه كله، ولسانه ينطق بالشهادتين، ودوت طلقات . . وظن العمدة أن حياته قد انتهت، لكنه لم يستشعر ألمًا ما بجزء من أجزاء جسمه، ورفع عينيه فإذا بخفاجة وقد تدلى فكه السفلى من الرعب، ورآه يترنح، ثم تقع الغدارة من يده، ويسقط على الأرض دون أن يستطيع الصياح، وهتف العمدة:

- ماذا جرى؟

قال شيخ الخفراء:

- أنا خال من المسئولية . . حضرة العمدة . . حضرتك أمرتنى بإطلاق الرصاص.

ثم زحف الاثنان صوب «خفاجة» . . وحاولا أن يجلساه لكنه كان يرسل أنفاسه المتحشرجة فى صعوبة واضحة، وصرخ شيخ الخفراء:

- إنه يموت . . رحنا فى داهية يا حضرة العمدة.

وهتف العمدة:

- أحضر جرعة من الماء.

وجرى شيخ الخفراء إلى المجرى المجاور، وأخذ العمدة يهمس:

- خفاجة.. تكلم.. ماذا جرى لك؟ أهى إصابة خطرة؟ لماذا فعلت ذلك يا ولدى؟.. لماذا؟ أنت السبب.

وحينما عاد شيخ الخفراء بالماء الذى يتسرب من بين أصابعه ويديه.. قال العمدة بصوت باك:

- لا فائدة.. مات خفاجة.. من قتل يقتل ولو بعد حين.. إنها إرادة الله.

ونظر العمدة حواليه، كانت العتمة قد ازدادت كثافتها، وكانت شواهد القبور تنتصب إلى جوارهما كأشباح غامضة، وأشجار الجميز الضخمة تقف ثابتة عتيدة وكأن لا يعنيها من الأمر شىء، ونباح كلاب بعيدة ينساب فى آذانهما كالأنين الملتاع، وقال شيخ الخفراء:

- كنا فى حالة دفاع عن النفس.

فلم يعر «العمدة» كلماته التفاتًا.. وظل هائمًا بنظراته فيما حوله.. ورأس «خفاجة» القتيل على فخذه وآلاف المشاعر تعتمل فى قلب «العمدة».. وعاد «شيخ الخفراء» يقول:

- هيا بنا نهرب يا حضرة العمدة.. لم يرنا أحد.. لو استطعنا الإفلات لقيدت الحادثة ضد مجهول وانتهى الأمر.

فلم يكترث «العمدة» لكلامه . . ونظر صوب القرية ، فوجد بضعة رجال يهرولون . . على صوت الطلقات التى انبثقت فى العتمة منذ قليل ، وما هى إلا ساعة حتى كانت القرية عن بكرة أبيها قد احتشدت حول جثة «خفاجة» . . لقد سرى النبأ فى كل مكان ، وكانت الكلمة التى تتردد دائمًا : «مات خفاجة . . مات خفاجة» . . وكأن موت مثله أعجوبة من الأعاجيب ، بل معجزة من المعجزات . . الشيطان لا يموت ، فلماذا يموت «خفاجة»؟ كان يفكر بعقله ، وكان عقله أكثر ما يكون حدة وذكاءً عند ارتكاب الجرائم . . وكان جهازه العصبى قويًا لدرجة غريبة . . لكنه مات . . مات وهو يرتجف ولا يكاد يصدق أن يدًا من أهل القرية استطاعت أن تطلق عليه الرصاص .

وكانت الشماتة فيه كبيرة ، أهالى ضحاياه أقسموا أن يوزعوا الشرباتِ ، وأن يتصدقوا على الفقراء بهذه المناسبة (السعيدة) ، وتذكر أحد الرجال «عبد الغفار» المسكين ، فهتف :

- خروف تائه يا أولاد الحلال .

وحلاوته . . ريال .

فتبسم بعض الناس ، وضحك آخرون ، أما الباقون فقد لزموا الصمت . لم يكونوا يعرفون هل يسعدون أم يحزنون . إن المأساة معقدة ، وما حدث شيء يشد الألباب والأبصار ، وتمتم «الشيخ عنبة» :

- لكن المحرض لم يزل حيًا . . كان «خفاجة» يدًا تحركها أطماع خبيثة .

فقال الشيخ عبد العزيز شلبى :

- ماذا تقصد؟

- سائل نفسك . . لماذا حاول «خفاجة» أن يقتل العمدة؟

وهز «عبد العزيز» رأسه وسكت .

وهز الواقفون رءوسهم ثم أطرقوا صامتين .

وكان صوت زوجة «خفاجة» يضج فى الآفاق نائحة : «يا سبعى . . يا جملى . . يا أبا العيال» . . وكان نواحها يبعث الألم والحسرة فى قلوب الواقفين .

كان مصرع «خفاجة» حدثًا تاريخيًا من أكبر أحداث القرية ، وكان نهاية لفترة عصيبة ، وبداية لفترة أخرى ، ورأى الناس أن العبرة فى مصرعه عبرة خالدة . . لم يستطع ذكاؤه ، ولا دقة تدبيره ولا دهاؤه الخارق ، ولا الرعب الذى بذره فى القلوب ، لم يستطع كل هذا أن يقف فى طريق المشيئة الإلهية . . وغمتم «الشيخ عنبة» :

اعتبروا يا أولى الأبصار .

وتلقف «الخواجة» الأنباء المذهلة بقلب واجف . . لقد فسد كل تدبيره . . وفقد ساعده الأيمن . . وبقى «العمدة» حيًا . . والفلاحون لم يدفعوا الإيجارات حتى الآن ، وأيقن «الخواجة» أن

حياته مهددة بالخطر . . وخاصة أنه المحرض . . وأهل القرية ليسوا سذجًا لدرجة أن يخفى عليهم المحرض الحقيقى على قتل «العمدة» . . وأسرع «الخواجة» إلى وكيله «الحاج إبراهيم» ووجه إليه كلمات موجزة دون مناقشة :

- لسوف أسافر إلى الإسكندرية . . سأبقى هناك فترة قد تطول . . يجب أن تسير على السياسة نفسها التى رسمتها لك . . المتأخرون عن الدفع سوف أرفع أمرهم للقضاء . . ولن يستطيع أحد أن يسرق مليمًا واحدًا من مالى . . إلى اللقاء . .

وفى اليوم التالى كان التحقيق جاريًا . . وسيق «شيخ الخفراء» و«العمدة» مقبوضًا عليهما إلى المركز لاستكمال التحقيق . . لكن «الخمارة» كانت مغلقة الأبواب . . و«الخواجة ينى» قد سافر . . والقرية تحلم بغد جميل .

وعاد «أحمد أفندى شلبى» من القاهرة فى زيارة عاجلة . . وأكد للناس حقيقة موت «السلطان حسين كامل» . وتولية «السلطان أحمد فؤاد» مكانه . . وجلوسه على كرسى السلطنه برغبة الإنجليز وتأييدهم وموافقته التامة على سياستهم العامة . . وتكليفه رئيس الوزراء السابق بتأليف الوزارة الجديدة .



القسم الثاني:

طوفان الثورة

•• الفصل الخامس عشر

انتهت الحرب عام ١٩١٨، بانتصار الإنجليز وحلفائهم، وانتهاء الحرب معناه السلام بالنسبة للعالم أجمع.. ومعناه الحرية والاستقلال بالنسبة لمصر، ولِمَ لا تنال مصر حريتها وقد تحملت الضنك والعذاب.. وضحت بأبنائها وما تملك أثناء الحرب؟ لِمَ لا تحظى بالاستقلال.. وهي التي تلقت الوعود الأكيدة من الإنجليز بذلك؟ وأخيراً.. لماذا لم تتحرر.. وقد انتشرت في أرجاء العالم الصيحة الكبرى التي هتف بها «ويلسون» رئيس الولايات المتحدة، حينما قرر أن تقرير المصير من حق أية دولة، وأن على الدول الكبرى ألا تقف في وجه الدول الصغيرة التي تنشد الحرية والاستقلال والتقدم؟

إن السلام بمعناه العام شيء رائع وجميل، لكن ما بالك بسلام جاء على أنقاض الحياة الإنسانية.. وعلى أشلاء الملايين من البشر، وبعد أن ذاق الناس في وطننا وفي قريتنا الصغيرة الويلات والنكبات؟ إن الذين أخذوهم بعيداً عن قريتنا مات أغلبهم غرباء، ولم يعد يعلم أحد كيف ماتوا.. لكن الشيء

الأكيد هو أنهم تعذبوا كثيراً . . تعذبوا في العمل الشاق الذى سيقوا إليه، ومن جراء كميات الطعام الضئيلة . . ولعدم وجود الفراش والغطاء . . ولانعدام اليد الحانية التى تداوى جراحهم وأمراضهم وهم طريحو التراب والأجواء المتقلبة بين الحر الشديد والبرد القارس . . وهكذا جاء السلام حزيناً دامعاً . . مقترناً بأمر النكبات . . لكن الناس كانوا يرقصون ويغنون فى عواصم العالم، ويشربون نخب السلام . . كانوا يترنحون سكارى . . حتى ينسوا أهوال الحرب وضحاياها . . ولم يعد إلى قريتنا إلا عدد ضئيل من غربائها، وعاد معهم «أبو المعاطى الشافعى» الذى أنهى مدة عقوبته بسبب اعتدائه على الخواجة . . ولكن «أبو المعاطى» كان أحسن حالاً من أولئك الغرباء العائدين . . وأوشك مؤتمر الصلح الدولى على الانعقاد، وكان لا بد أن يسافر وفد مصرى يشرح القضية الوطنية أمامه . . ويطالب بالاستقلال الذى هو حق طبيعى لكل الدول . . فى ضوء العدالة وفى ضوء نداء الرئيس «ويلسون» وباسم التضحيات الغالية التى قدمتها مصر أثناء الحرب الطاحنة .

ويهرول «الشيخ عنبة» إلى أنحاء القرية والكفور المجاورة . . ويشرح لهم القضية . . ويطلب منهم التوقيع على (توكيل) أعده الوفد المصرى المسافر إلى أوربا . . حتى يكون لسفر الوفد ومطالبه صفة قانونية، ومعبرة عن رغبة الجماهير . . ويكون تمثيل الوفد للأمة ومطالبها تمثيلاً صحيحاً .

لكن الإنجليز يعترضون على سفر الوفد، ويصدرون أوامرهم إلى مديرى الأقاليم بالتصدى لحملة التوكيلات ووقفها بحجة أنها مثيرة للفتن.. ومهددة للأمن العام.. لكن «الشيخ عنبة» لا يتوقف عن نشاطه.. والعمدة «خلاف عبد المتجلى» يفسح له المجال للعمل ويؤازره.. و«الشيخ عبد العزيز شلبى» يسير إلى جواره، و«أبو المعاطى الشافعى» الذى أفرج عنه حديثًا.. وقد انتابته نوبة عميقة من الإحساس بالوطنية العارمة.. يشاركهم فى العمل.. و«الخواجة ينى» وقد عاد إلى القرية يؤكد ولاءه للقضية.. ويبدى تأييده التام لها.. وذات ليلة وفدت كوكبة من رجال الشرطة.. وقصدوا دوار العمدة.. كان العمدة هذه المرة يختلف تمام الاختلاف عن المرات السابقة.. لم يقدم للقادمين كئوسًا من الخمر.. وإنما أحضر لهم أقداحًا من الشاى.. لم يضطرب ولم يتلعثم ولا كلف نفسه مئونة الجرى أمام الموكب الرسمى.. بل ظل ثابتًا فى مكانه، وقال:

- ماذا تريدون؟

فأخرج الضابط ورقة مكتوبة من جيبه، وتمتم:

- أمر بالقبض على الشيخ «عنبة المتولى».. و«عبد العزيز شلبى».. و«أبو المعاطى الشافعى» لمخالفتهم الصريحة للأمر العسكرى.

ورفع الضابط عينين ساخرتين إلى العمدة، واستطرد:

- ثم أمر بالقبض على حضرة العمدة «خلاف عبد المتجلى».. لإهماله فى تنفيذ الأوامر.. ومعاونته للمنحرفين.

شعر العمدة بمزيد من الضيق وهو يستمع أولاً لأمر القبض على الرجال الثلاثة . . وبأن الكدر على وجهه . . وعندما سمع بأمر القبض عليه هو الآخر . . ارتسمت على وجهه ابتسامة حقيقية . . إنها المرة الثانية التى يتعرض فيها للخطر بسبب المثل العليا التى آمن بها . . وكانت المرة الأولى يوم أن حاول «خفاجة» قتله فى الطريق العام . . كان العمدة سعيداً حقًا وخاصة أن صحبته- الرجال الثلاثة- صحبة طيبة . . ولذا لن يشعر فى سجنه بالملل .

وتمتم الضابط قائلاً :

- هيه . . ماذا قلت؟

قال العمدة دون اكتراث :

- العمر واحد يا حضرة الضابط .

فقال الضابط فى استغراب :

- هذا اعتراف ضمنى منك بالتهمة واستهتار بالأوامر العسكرية ، وفيه أيضًا إصرار على تصرفاتكم .

فابتسم العمدة قائلاً :

- لم أقل ذلك .

- لكنك تبتسم .

- أبتسم بالطبع . . لأن هذه خطوة غير عملية ، فمعنى ذلك أن

الحكومة ستقبض على ملايين العمد فى أنحاء القطر وغيرهم من الوطنيين . . فمن أين لها أن تجد السجون اللازمة لهذا العدد كله؟

وسادت فترة صمت قال العمدة بعدها :

- ثم إننا لا نفعل شيئًا خطيرًا . . نيب عنا بعض ذوى الرأى للمطالبة بحرياتنا . . ألا ترى، أن الحرية حق؟ ولماذا يمنعون الوفد من السفر؟ . . إنها قضية جائرة كما ترى، إن الحرب لم تنته يا حضرة الضابط . . وليس هناك أى مظهر من مظاهر السلام إلا وقف المعارك الكبرى بين الدول الكبرى . . والدول الصغرى لا تملك السلاح الكافى . . لكنها تملك الصبر والمناوشة والتضحيات، وتملك الحق الواضح . . ولهذا فإن المعركة هذه المرة ستكون مريرة وطويلة .

لم يخفَ على الضابط الشاب مغزى الكلمات الصادقة التى يرددها العمدة، ولم يخالجه أدنى شك فى قوة منطقها وعدالتها، ولعله هو الآخر يؤمن بها أعمق الإيمان، ومع ذلك فقد هب الضابط واقفًا، وقال :

- إنها أوامر يا حضرة العمدة .

- أعرف . .

- والأوامر لا بد من تنفيذها .

- أعرف . .

ووقف الرجال الثلاثة وحضرة العمدة والأغلال فى أيديهم، واحتشد من حولهم رجال القرية ونساؤها وأطفالها، وكان موكبًا مهيبًا، وانطلقت الزغاريد فى آفاق القرية الوادعة لكن الدموع كانت تترقرق فى العيون، وهتف «الشيخ عنبة» قائلاً:

- إنها رحلة إلى الله . .

وردت عليه أصوات كثيرة:

- ستعودون بالسلامة.

وكان «أبو المعاطى الشافعى» مشرق الوجه، متهلل الأسارير، رافعًا هامته فى افتخار، شتان بين الأمس واليوم، أخذوه من قبل بتهمة الشروع فى قتل، واليوم يقبضون عليه بتهمة الوطنية.

وكانت «صابرين» تبكى بحرقة، وعيناها بدتا مثل كأسين من الدم، كانت تقول: أبى مريض وصحته وسنه لا يحتملان السجن، و«الشيخ عنبة» هو الآخر أصبح شيخًا محطمًا . . فقاطعتها أمها قائلة:

- إن أباك لا يرحم نفسه.

- إنه لم يفعل شيئًا يعاقب عليه.

لماذا لم يفكر فى تهدئة «عنبة»؟ . . لم تكد تنتهى الحرب حتى بدت لنا المتاعب من جديد . . أقول الحق . . «الشيخ عنبة» رجل مغامر.

قالت صابرين:

- إنهم لا يفعلون إلا ما يفعله سعد باشا والوطنيون المخلصون.

- لكن يا ابنتى..

- لكن ماذا؟ إن التخلص من الإنجليز، وطلب الحرية كما يقول «الشيخ عنبة» بحق واجب يفرضه الدين.

وبرغم الدموع التى كانت تنسكب من عينى «صابرين» إلا أنها كانت تشعر بفرحة غامرة فى أعماقها، وهى تسمع الناس يثنون على شجاعة أبيها وإخلاصه ووطنيته وهو الرجل المسن المريض، وكانت سعيدة؛ لأن موعد عقد قرانها على ابن خالها قد تأخر.. إنها لم تزل تحب «أحمد شلبى» الذى أوشك أن يكون مهندسًا، ذلك الذى اختاره قلبها، وهى تبدى لأمها أنها لم تكن تميل لذلك الارتباط المقترح بابن خالها، ومع تبسطها فى الحديث مع أمها، واعترافها لها بخلجات نفسها إلا أنها كانت عاجزة تمام العجز عن التصريح لأبيها بحقيقة مشاعرها، ثم إن أباها لم يفكر فى أخذ رأيها فى أمر يخصها، لقد تقدم ابن خالها.. ووافق أبوها على الفور، واتخذت الإجراءات المؤدية للزواج.. وكان على وشك أن يتم لولا حادث الاعتقال الأخير.

ولم يكن حادث الاعتقال بداية لانطفاء الروح الوطنية بالقرية.. ومثبطًا لحماستها.. فقد أسرع طلبة المدارس الثانوية والأزهر الشريف، وأعدوا التوكيلات، وأخذوا يجمعون

التوقيعات من جديد . . وكان هذا التصرف مدعاة لفرحة شاملة بعثت الأمل والفخر فى قلوب الأهالى . . ولما ترامت أنباؤها «للشيخ عنبة» ورفاقه فى معتقلهم . . صفقوا طربًا . . وترقرقت الدموع فى عيونهم . . وتمتم «عنبة» :

- إن النداء الخالد لن يموت . . نداء الحرية أيها الرجال . . وكيف يموت وجيلنا الصاعد نراه بأعيننا يحمل الراية دون خوف . . لقد تحررت العقول من الأوهام أيها الرجال ، ولهذا فأنا واثق من النصر . . إن أبناءنا الضعفاء يهتفون للحرية .

وصمت برهة ثم أخذ يترنم بنبرات متهدجة :

- يقول حبيبى : من رهب الملوك لغير جريرة فهو الصعلوك . . نحن لا نرهب «السلاطين» ولا «المندوب السامى» . . إن عدونا الحقيقى هو الخوف ، وقد تغلبنا عليه . . وقيودنا الحقيقية ليست هذه السلاسل التى فى أيدينا وأرجلنا . . آه . . يقول حبيبى : «قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام . . » لو مت الآن أيها الرجال لمت سعيدًا . . إنى أرى نذر الثورة . . أراها فى عيون الصبية والشبان والرجال ، والنساء أيضًا . . إن تجربة السنين الطويلة من الظلم والقسوة والعذاب قد خلقتنا خلقًا آخر . . انتظروا الثورة الشاملة . . هذه الثورة لن يحمل لواءها زعيم ، ولن يدعو إليها حزب من الأحزاب . . الشعب هو الثائر . . وهو الزعيم . . وهو الذى يحتمل التضحيات . . انظروا . . إن «سعيد» لم يزل حرًا

يروح ويجىء . . لكن الحكومة قبضت على «خلاف عبد المتجلى» و«أبو المعاطى الشافعى» و«عبد العزيز شلبى» . . والعبد لله «عنبة المتولى» . . وآلاف غيرنا .

وشرد «عنبة» ببصره بضع لحظات ثم همس :

- لسوف يكتسح طوفان الثورة أحزان الماضى وذله وعاره . . وسنولد من جديد .

وأراد «أبو المعاطى الشافعى» أن يخفف من حدة التوتر ، فقال ضاحكًا :

- أرجو ألا تكون ولادة متعسرة .

قال «عنبة» جادًا :

- فيها السلامة إن شاء الله .

وقال حضرة العمدة :

- لماذا لم يحققوا معنا حتى الآن؟

فرد عليه «عبد العزيز شلبى» :

- الظاهر أنه حبس تحفظى .

وقال «أبو المعاطى» دون أن يبدو على وجهه إثارة من خوف :

- إنى أشم رائحة الكرابيج .

ظلت حركة التوقيعات ماضية فى طريقها ، ولكن شيئًا غريبًا فى

القرية . . لقد فوجئوا ذات مساء «بصابرين» بنت «العمدة» تحمل فى يدها أقلامًا وأوراقًا . . وتمر على نساء القرية لتجمع بصماتهن وتوقيعاتهن . . برغم اعتراض أمها . . وترديدها دائمًا :

- يا للفضيحة يا ابنتى . . أتفعلين مثلما يفعل الرجال . . لو علم أبوك بالأمر للقنك درسًا قاسيًا فى الأدب .



•• الفصل السادس عشر

إن أحدًا لم يعط الإشارة كي يندفع الطوفان، ومتى كان الطوفان يتلقى الإشارة من أحد؟ الطوفان يتدفق نتيجة عوامل طبيعية، ويد المشيئة الإلهية هى التى تخطط له.. وتضع فيه الطاقات الهائلة، ثم تدعه ينطلق.. وهكذا قامت ثورة ١٩١٩ فى مارس.. إن «سعد زغلول» لم يعط الإشارة، ولا أحد من الزعماء أو الأحزاب، أفواج الشباب والرجال هى التى ثارت يوم أن منع الإنجليز سفر الوفد.. ووجه القائد الإنجليزى «وطسن» إنذاره الشهير.. ثم ألقى القبض على بعض الزعماء، سارت المظاهرات سلمية فى كل مكان.. فى القاهرة حيث بدأها طلبة المدارس العليا.. وفى الجامع الأزهر.. وفى الشوارع وعنابر السكة الحديد، ومن مسجد أبى العباس فى الإسكندرية وفى الزقازيق ودمنهور والإسماعيلية وطنطا وأسيوط والمنيا وبنى سويف.. فى المدن كلها والقرى.. بالوجه القبلى والبحرى.. لم يكن هناك ترتيب أو تنظيم معين، وهكذا انطلق الطوفان.. الإرادة الشعبية التى لا تقهر، وجن جنون الإنجليز.. لم يتوقع أحد هذا الزحف الهائل، من شعب

صابر أعزل ليس له قيادة منظمة، ولا يحكمه حاكم شريف، ولا يطيق الأعداء صبراً، وكيف يستسلمون وهم الذين انتصروا بالأمس على أقوى دول العالم.. وأرغموها على الركوع والاستسلام؟ أيأتون اليوم ويستسلمون لإرادة شعب صغير عارٍ من القوة المادية؟ كيف يستسلم المنتصر القوى؟ وانطلقت رصاصات الأعداء الطائشة فى صدور الأبرياء فى كل مكان.. وسقط الشهداء، يقرءون أسماء الشهداء فلا يقعون على اسم زعيم أو رجل مشهور.. أغلب الضحايا من العمال والفلاحين وصغار البقالين والموظفين والطلبة فى المدارس والأزهر.. وهكذا فهم الإنجليز أن الثورة- استدلالاً بأسماء الشهداء- ليست ثورة زعماء... ولا أحزاب، وإنما ثورة أمة بأسرها.. ومن هنا تكمن خطورتها.. ويحاول الإنجليز أن يرسلوا قواتهم المسلحة فى كل مكان.. لكن أنى لهم ذلك. وقد هرع الشعب فى كل مكان إلى خطوط السكك الحديدية وأسلاك البرق والتليفون كى يدمرها.. يدمرها لا رغبة فى التخريب، ولا بدافع الفوضى، ولكن لكى يعوق تقدم الأعداء، ويوقف شرورهم، والمعركة حاسمة.. والجنون يسيطر على عقل القائد الإنجليزى وعقول قواته.. ثم يصدر بيان عسكرى:

- جناب القائد العام لقوات الإنجليز.. فى القطر المصرى.. ينذر الجمهور.. أن كل من يتلف مواصلات سكك الحديد أو

يلحق بها أى عطل . . أو يعبث بها بأى وجه من الوجوه . . يعرض نفسه للإعدام رميًا بالرصاص . . بمقتضى الأحكام العرفية .

ويضحك «الشيخ عنبة» ويشاركه العمدة، وأهل القرية الضحك، وهم يقرءون ذلك البيان الملصق على باب «الدوار»، وكان عنبة والرجال الثلاثة قد أفرج عنهم بعد بضعة أسابيع من الاعتقال، ويقهقه «عنبة» فى سعادة، ويقول :

- هذا القائد المجنون ماذا يقصد؟ أيريد منا أن نفسح له الطريق؟ ونستقبل قواته مرحبين؛ لأنهم قدموا لسحق الثورة والثوار؟ إنهم لم يكفوا عن قتلنا قبل الأمر العسكرى، وسيصرون على سفك دم الثوار دائمًا . . ما دام النداء الخالد يتردد فى أنحاء مصر .

ويذهب إنذار القائد العام أدراج الرياح، ويظل طوفان الثورة مندفعًا قويًا لا يرهب أحدًا . . والثوار لا يكفون عن إتلاف السكك الحديدية، والتعرض للمعتدين دون خوف من رصاصهم . . فيأتى إنذار آخر، وما أكثر الإنذارات التى تذاع آنذاك :

- جناب القائد العام ينذر . .

إن القرى الواقعة بقرب الخطوط الحديدية . . التى يحدث بها تلف تكون مسئولة عن نفقات الترميمات وكذلك عن التعويضات فى حالة إحراق المحطات، أو حدوث نهب أو سلب .

ويضحك العمدة، برغم تضعضع صحته وتأثير السجن السيء عليها، ويقول للشيخ «عنبة»:

- أتعتقد يا «شيخ عنبة» أن التعويضات والغرامات التى سيفرضونها علينا ستكون أكثر أو أغلى مما أخذوه منا أيام الحرب الطاحنة؟ أخذوا الرجال والحبوب والحيوانات آه.. وألف آه.. يجب ألا نستسلم هذه المرة بأى شكل.

ويهز «الشيخ عنبة» رأسه قائلاً:

- تصور يا حضرة العمدة أن عدد العمال الذين ساقوهم إلى ميدان القتال بلغ ميلونًا ونيفًا!! أقسم لو قامت الحرب الرسمية بيننا وبين الإنجليز لما خسرنا نصف هذا العدد.. كنا نخسر دون ثورة.. فمرحبًا بالضحايا ونحن أصحاب قضية عادلة.

الطوفان ينطلق.

والضحايا يسقطون.

والسكك الحديدية ما زالت تخرب برغم الإنذارات.. وبرغم حراسة الإنجليز لها، ويأتى إنذار آخر:

- جناب القائد العام ينذر..

كل حادث جديد.. من حوادث تدمير محطات السكك الحديدية أو المهمات الحديدية.. يعاقب بإحراق القرية.. التى هى أقرب من غيرها إلى مكان التدمير.. وهو آخر إنذار.

ولم تكن كثرة الإنذارات . . ولا المزيد من القتل والسجن والإرهاب بقادر على أن يقف فى وجه الطوفان ، فالشيخ «عنبة» يدعو شباب القرية ورجالها للزحف صوب مدينة زفتى - أقرب مدن المركز - للمشاركة الفعلية فى الثورة ، ويخرج المئات سرًا على الأقدام . . ويقطعون ما يقرب من اثنى عشر كيلو مترًا ، وأغلبهم حفاة الأقدام ، ولعل أكثرهم لم يتناول طعام الإفطار ، وفيهم من لا يحمل فى جيبه مليمًا واحدًا . . وأكثرهم لا يعرف القراءة والكتابة . . وفى زفتى تطورت الأمور إلى حادث غريب مثير . . حادث لا ينساه التاريخ .



•• الفصل السابع عشر

عاد «أحمد شلبى» إلى حجرته بالسيدة زينب، متعبًا مكدودًا، وكان إجهاده النفسى أضعاف إجهاده الجسدى، لقد ذهب صبيحة ذلك اليوم إلى الأزهر للاشتراك فى مظاهرة كبرى.. ولحضور المؤتمر الكبير الذى ستناقش فيه القضية الوطنية، وللاستعداد لتشييع جنازة الشهداء الأبرياء.. لكن القوات الإنجليزية حاصرت المساجد، فقصد لتوه إلى مسجد الحسين، فلم يستطع الإفلات.. الحصار المضروب، القوات الإنجليزية تقف فى كل مكان، وفى يدها السلاح الأعمى، وأخذ الرجال يتوافدون من كل أنحاء القاهرة، والطوفان لا يعرف العوائق والسدود.. والطوفان يبحث عن ثغرة يحاول توسيعها النفوذ منها، قد ينحرف يمينًا أو يسارًا لكنه يسير ويأبى إلى بلوغ غايته، وهكذا تسلل الأحرار من الأزقة الخلفية، ووثبوا من المنازل المجاورة، واجتمع الشمل، وهدرت الصيحات العالية، إنه زئير الطوفان الذى لا يخاف، وخرجت الجموع هاتفة بالنداء الخالد، الكتل البشرية تتحرك وكأنها جسد

واحد وقلب واحد وعقل واحد . . «الاستقلال التام . . أو الموت الزؤام . . الحرية . . الحرية . . يسقط الاستعمار . . مرحبًا بالموت فى سبيل الوطن» .

لكن الرصاصات الطائشة تنساب إلى الجسد الكبير . . الجسد الواحد ، ومع ذلك فهو يسير ، والدم الأحمر يرسم الرموز والحروف على الأرض الطاهرة ولا يقف الطوفان ، ويهرول الناس من الشوارع الجانبية والأزقة والحارات ، وأطفال كثيرون جدًا يتعلقون بأذيال الموكب ، قد لا يعرفون إلى أين يسيرون ، لكنهم منطلقون مع الزحف الكبير ، وينمو الجسد الكبير . . خليط غريب من لابسى العمائم والطرابيش والطواقى والقبعات أيضًا . . والجميع يتراصون ، ألا يحيلوا الزحف المقدس إلى فوضى وتخريب ، ويلتقى الوافدون من بولاق والحسينية مع القادمين من الجيزة والسيدة زينب وطولون وعابدين ومختلف الأحياء ، وهذا الموكب الشعبى السلمى أقوى من مليون طلقة ، وأخطر من مائة معركة حربية كبرى من معارك الحرب ، وصاح القائد الإنجليزى :

- أطلقوا الرصاص .

فينطلق الرصاص . . وقتلى مجهولون يسقطون مضرجين بدمائهم . لكن الموقف لا يتغير والطوفان لا يقف لأنه لا يعرف الوقوف . . أهم ميزاته الحركة الدائمة الذائبة .

- أطلقوا الرصاص.

فينطلق الرصاص.. آه.. الأطفال أيضًا يصرعون.. النساء لم تخطئهم الرصاصات الطائشة الغادرة.. ويرى «أحمد» بعيني رأسه ذلك كله، فيصرخ: «يسقط الظلم»، فينبعث من خلفه هدير كالرعد، هدير يطغى على صوت الرصاص، وأوامر القيادة الإنجليزية.. إن «سعد باشا» ورفقاءه في «مالطة».. في المنفى البعيد.. والقرى المجاورة لمحطات السكك الحديدية تحرق وتدمر، والناس يساقون بالآلاف إلى المعتقلات والسجون، والشهداء يسقطون، والإنجليز يرفضون إلغاء الحماية، والاعتراف بحرية الشعب واستقلاله، والحكومة شبه مستقيلة، والسلطان «فؤاد» في قصره حيث الدفء والطعام والراحة والنعيم.. وأشياء كثيرة تتغير.. لكن الإرادة الشعبية- الطوفان- تسير مكتسحة كل خوف ووعيد.

ويعود «أحمد شلبي» آخر اليوم بعد أن أفلت من يد الشرطة إلى حجرته، ويجلس مكدودًا متعبًا ليس لديه أدنى رغبة في الطعام، ويأتي بواب المنزل يقول له:

- هذا خطاب باسمك..

ويشكره «أحمد».. ثم يفض الغلاف، ويقرأ:

- أخي العزيز أحمد..

فكرت مليون مرة أن أكتب إليك، لكن يدي لم تكن تطاوعني،

فـما من عرفنا أن تكتب الفتـاة لرجل . . ثم إن الكتـابة ليـست كل شيء، إن قلبي يحدثني بأنك إنسـان كبير نبيل، وأن لي في قلبك منزلة عظيـمـة، أهو الغـرور، والوهـم؟ لا أدرى . . ولكن هكذا تحدثني نفسي.

إنني أكـتب إليك الآن، وقـد همت الثـورة أرجـاء القطر، وأخبـاركم في القـاهرة تصلنا باستـمرار، ولا أكتمك أني أخاف عليك، أنا لا أبخل بالتضحية من أجل وطني، ولا أظنك تبخل بها . . لكن اعذرني يا «أحمد» . . إن الحياة غـالية . . وحبنا غالٍ هو الآخر . . ستقول لي: إن وطننا أغلى من أي شيء آخر في الحيـاة . . أنا مـعك في ذلك، لكنني أرجـوك أن تحـافظ على حياتك . . أن تتصرف بحكمة . . يجب أن نقدم تضحيـاتنا في روية وعـقل . . نحن أحـوج مـا نكون لكل نقطة دم يريقـهـا العدو . .

أحمد..

إن بنفسي حديثًا أريد أن أفضي به إليك . . قد يكون حديثي عن الحب . . لكنه ليس خارجًا عن معـاني الثورة الشـاملة . . أشعر يا «أحمد» أنني أتغير يومًا عن يوم . . لم أعد «صابرين» التي تعرفها في السنوات الماضيـة . . إنني أضـيق بالسـجن الذي أعـيش فيـه . . أضـيق بالتقـاليد القـاسية التي أرزح تحت عباءتها . . أشعر أن ثورة أخرى تثور في دمائي، وليس ذلك من الانحراف في شيء . . إنني

إنسانة حية ذات كيان يلتهب ومشاعر وأفكار، إن «قاسم أمين» الذى قرأت له يكتب كلامًا غريبًا عن المرأة وحقوقها . . لكنه ليس غريبًا بالنسبة لى فإنى أحس باستجابة حقيقية لكلمات هذا الرجل . . إنه يطالب بتعليم المرأة، وهذا حق لا أثر فيه للباطل، ويطالب باحترام إنسانيتها ومشاعرها . . وإعطائها الحرية للتعبير عن نفسها فى حدود الأخلاق المرعية . . وهذا حق أيضًا . . ويريدها أن تحمل جزءًا من التبعة الملقاة على عاتق المجتمع نساء ورجالاً . . لكننى لا أوافق «قاسم أمين» فى مسألة السفور . . هذا رأيى . . وبالاختصار فإن هذا الرجل عظيم . . يرسى قواعد ثورة اجتماعية إلى جانب الثورة السياسية كما يقول أحد الذين كتبوا عنه، وعن مقالاته فى الصحف .

أخى أحمد . .

يجب أن أكون أنثى حرة متعلمة .

ويجب ألا أساق إلى بيت الزوجية قهرًا، لأعيش مع رجل لم يختره قلبى . . لقد قررت أن أتزوجك أنت . . ولا أتزوج ابن خالى . . ولن أستسلم مهما كان الأمر . . إن الذى يعوقنى الآن عن مواجهة أبى بالحقيقة، هو أنه مريض مسن، والناس مشغولون بالثورة فى كل مكان . . ثم إنى أحتاج لشجاعة خارقة كى أقول كلمة الحق . . لكن ربما لو تقدمت لى طالبًا يدى من أبى . . فأجد فى نفسى الشجاعة للإقدام على ما أعتزمه .

عزيزى أحمد..

ألم أقل لك إن الثورة شاملة؟

لا بد من التغيير . . لا بد . . وإلى اللقاء .

«صابرين»

قرأ «أحمد» الخطاب ثلاث مرات، كان للخطاب دلالات عميقة فى ذهنه، ودهش أكثر إذ يرى «صابرين» تدرك هذه الدلالات وتعيها تمامًا، وتعبر عنها بهذا الوضوح، وكاد يشك فى أن «صابرين» قد لا تكون صاحبة الخطاب . . أو أنها استعانت ببعض الرسائل والكتب القصصية المترجمة عن الأدب الأوربى . . لكنه بعد تفكير عميق أيقن أن «صابرين» طموحة، وأن ذكاءها غير عادى . . وأن قراءتها الكثيرة فى الصحف القديمة والمجلات والكتب . . كان لها أعمق الأثر فى هذا التغير . لم تعد فى نظره مجرد فتاة ريفية ساذجة، وهذا ما ينمى من حبه لها . . وتقديره لشخصيتها، بل إنه رأى أنها أكثر شجاعة وثورية منه، لأنه لم يجرؤ على أن يفاتح أباه فى أمر زواجه . . ولم يقدم على خطوة شجاعة واحدة لكى يطلب يد الفتاة التى اختارها قلبه دون غيرها، وشعر بقليل من السعادة يتسلل عبر جوانحه المحزونة . . وكيف يستشعر السعادة الكاملة ودماء الشهداء لم تجف حتى الآن فى شوارع القاهرة وغيرها، والمآتم فى كل حى من الأحياء والمعركة لم تزل مشتعلة الأوار؟ وقطع عليه عزلته مجىء بعض

أصدقائه من مدرسة المهندسخانة ومدرسة الحقوق والمعلمين العليا والقضاء الشرعى.

وجلسوا يحتسون أقداح الشاى ويتحدثون عن الثورة، وصداها فى أنحاء العالم، وعن مظاهرة النساء فى القاهرة.. تلك المظاهرة التى خلّدها شاعر النيل «حافظ إبراهيم» فى قصيدته التى يقول فيها:

خرجَ الغوانى يحتَجِجْنَ
ورحتُ أرقبُ جمعَهُنَّهْ
وإذا بِجَيْشٍ مُقْبِلٍ
والخيلُ مطلقةُ الأعنَّهْ
وإذا الجنودُ سيوفُها
قد صُوِّبَتْ لنحورِهنَّهْ
والوردُ والريحانُ فى
ذاك النهارِ سلاحُهنَّهْ

وما إن فرغوا من ذلك حتى قال طالب بمدرسة الحقوق:

- لقد بلغتنا أخبار سيئة.. يبدو أن ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية سوف يتنكر لتصريحاته عن حرية الشعوب فى تقرير مصيرها.

قال «أحمد شلبى» فى ضيق :

- وماذا فى ذلك؟

- معناه أن يقر مؤتمر الصلح الحماية على مصر . . معناه أن ينهار ركن من أركان التأييد الدولى المعنوى .

قال «أحمد شلبى» ثائرًا :

- ليكن . . الحرية لا تمنح من أية دولة كبرت أم صغرت ، ولكنها تؤخذ أخذًا . . سننال الحرية بدمائنا ونضالنا وأحرارنا ، إنها حقنا ، ولن يغير من ذلك أمريكا ولا مؤتمر الصلح . . لا يهمنى تأييد دولة من الدول لنا . . بقدر ما يهمنى إيمان شعبنا بحريته . . ومُضيِّه فى الطريق الدامى الشائك للحصول عليها . . إن تصريح «ويلسون» وحده لم يمنحنا الحرية . . وبالتالى فإن تنكره لهذا التصريح لن يسلبها منا ، والثورة سائرة فى الطريق .

فهز الجميع رءوسهم موافقين .

ثم أخذوا يتحدثون عن ضرورة سفر بعضهم إلى الأقاليم ، وتزكية روح النضال فى الريف ، ومدهم بالمعلومات والمنشورات ، وتوكيدًا للصلة الوثيقة بين الثورة فى مختلف الأرجاء ، ثم قال «أحمد شلبى» :

- إنى موافق على ذلك ، إن سبعين فى المائة من أبناء الشعب يعيشون فى الريف . . والريف هو الذى تحمل أعباء الحرب . .

أخذوا أقواته وحيواناته ورجاله . . إن ثورة الفلاحين هى أقوى دلالة وأبعد مغزى من أية ثورة أخرى، ثم مَنْ نحن؟ نحن أبناء هؤلاء الفلاحين، ونحن الذين نصطلى بنيران الثورة فى القاهرة . . ليكن . . لسوف أسافر إلى الغربية، وأنزل طنطا . . وليذهب كل واحد منا إلى جهة من الجهات، نحن على أبواب مذابح كبرى ومحاكمات عسكرية . . وحادث مقتل بعض الجنود الإنجليز فى أسيوط ودير مواس وغيرهما سيؤدى إلى عنف بالغ . . ألم تعلموا أنهم قد أحرقوا بعض قرى الجيزة . . واعتدوا على حرمات أهلها . . وقتلوا كثيرين من الدقهلية وغيرها؟!

***

لم يكن السفر فى ذلك الوقت ميسوراً . . بعد أن توقفت القطارات وأصوات التليفونات والبرق، وأصبحت وسيلة السفر هى الحمير وعربات الكارو والسفن الشراعية، فرأى «أحمد» أن يسافر عن طريق النيل حتى يصل إلى منطقة زفتى غمر فى فرع دمياط .

وعند بلوغه زفتى سمع أخباراً غريبة .

إن زفتى المدينة الصغيرة قد تعلن الجمهورية .

وضحك لأول وهلة . . ضحك لأن السلطان لم يزل حيًا

يرزق . . والإنجليز بقواتهم يرابطون فى أرجاء القصر . . وابتسم قائلاً :

- إنه حلم جميل أن يأتى يوم الجمهورية . . وإن كان حلمًا بعيد المنال .

وفى زفتى التقى بالوافدين من أهل قريته .

وعانق أباه و«الشيخ عنبة» و«أبو المعاطى الشافعى» وغيرهم ، وكان عناقه لحضرة «العمدة» عناقًا عاطفيًا حارًا .



●● الفصل الثامن عشر

كانت مظاهرة ضخمة تلك التى قامت فى مدينة زفتى من أعمال مديرية الغربية . . ولم يحاول مأمور المركز الجديد- إسماعيل بك حمد- أن يتعرض لها . . بل كان يؤيدها بروحه وبسلوكه أيضًا . . إذ إن الرجل كان يؤمن إيمانًا عميقًا بعدالة القضية . . وبأحقية الشعب فى التعبير عن آرائه . . والمناداة بحريته . . واندفعت الجماهير يقودها شاب متحمس مثقف اسمه «يوسف الجندى»، ولكى تؤمن الثورة على نفسها بادر الرجال بقطع الطرق الحديدية وأسلاك البرق والتليفون المؤدية إلى المدينة على الرغم من الإنذارات العسكرية التى يوجهها جناب القائد العام للقوات البريطانية، وكان ضمن المتظاهرين أبناء القرية بما فيهم العمدة و«عبد العزيز شلبى» ، و«أبو المعاطى» و«الشيخ عنبة» . . وكان «أحمد أفندى شلبى» فى مقدمة السائرين، ومن قادة المظاهرة إلى جانب الشاب الوطنى «يوسف الجندى» . . وفى النهاية توجهت المظاهرة إلى المركز، ووقف «يوسف الجندى» خطيبًا بين هتاف الجماهير وصياحهم . . وأخذ يقول :

- أيها الإخوان.

أريد اليوم أن أوجه إليكم حديثًا مهمًا وخطيرًا.. وأرجو أن تستمعوا إلىّ بآذانكم وبقلوبكم أيضًا.. إن الثورة أيها الإخوة المواطنون قد عمّت كل الأنحاء، الشعب وحده هو الذى يخوض المعركة اليوم ويضحى بكل غالٍ ورخيص، أما السلطان فقد اعتكف فى قصره.. لقد انفصل عن الثورة.. لم يعد واحدًا منا.. تلك هى الحقيقة المرة.. والحكومة شبه مستقيلة. لقد استقال رئيسها «رشدى باشا» تضامنًا مع الشعب، ولكن السلطان يسوف فى قبول الاستقالة.. نحن الآن أيها الإخوان بلا حكومة.. بلا سلطان.. الحاكم الأوحد هو القوة الإنجليزية.. والإنجليز ليسوا سلطة شرعية.. ويأبون أن يكون لنا سلطة شرعية.. فلا نواب عن الأمة، ولا وزراء حقيقيون، والسلطان وجوده كعدمه.. الأمر إذن فوضى.. وأرانى مضطرًا الآن أن أعلن باسمكم استقلال زفتى.. وقيام الجمهورية أرقى نظم الحكم وأعدلها.

وما إن بلغ هذا الحد من الحديث حتى ضجت الجماهير بالهتاف.. معلنة سخطها على السلطان والإنجليز.. مؤيدة قيام الجمهورية.. وهمس العمدة وسط الضجيج:

- إنها خطوة خطيرة.

وقال «عبد العزيز شلبى» :

- إنه انقلاب لا تقل عقوبته عن الإعدام .

أما «الشيخ عنبة» فقد قال :

- لكنه الحق الذى لا حق بعده ، وليكن ما يكون ، واستطرد الشاب الخطيب «يوسف الجندى» قائلاً :

- الجمهورية معناها أن يختار الشعب الحاكم الكفء . . وأن يبارك خطواته إذا أصاب . . ويحاسبه إذا أخطأ . . معناها العدالة الاجتماعية والسياسية الشاملة ، فهل توافقون؟

وعاد الهتاف والضجيج .

وأسرع «أحمد شلبى» بالوقوف إلى جوار الخطيب . . واندفع قائلاً :

- باسم هذه الجماهير أبايعك . . وأقف إلى جوارك حتى الموت .

ثم مد يده مصافحًا . . وتسابقت الجماهير إلى الخطيب الشاب الذى أعلن الجمهورية محيية مبايعة . ثم اندفع الجندى صوب العلم وصعد الدرج وأنزله ووضع مكانه علمًا آخر وسط تصفيق الجماهير وهتافهم ، كما أعلن تكوين مجلس شورى له السلطة التنفيذية والتشريعية ليحكم المدينة تحت إشراف مأمور المركز «إسماعيل بك حمد» . . وكان «أحمد شلبى» ضمن هذا المجلس .

كان الليل حالكًا، وكانت مدينة زفتى شبه نائمة، لكن مطبعة «عجينة» المعروفة.. تتدفق منها الأضواء.. وآلاتها تدور فى دأب وصبر.. ولا يبدو فى عيون العمال أو رئيسهم أثر للنوم، وكان «أحمد شلبى» جالسًا يرتب أوراقه، ويصحح ما فيها من أخطاء، أو يمسك ورقة بيضاء ويسطر فيها ما يمليه عليه فكره.. إنه يريد أن يصدر العدد الأول من جريدة «الجمهور» بسرعة وبإتقان أيضًا، والعدد الأول ملىء.. فيه المقالات الوطنية، وفيه تحليل للقضية الوطنية وشرح وافٍ لها، وفيه توجيهات للجماهير الثائرة.. توجيه بحماية الأجانب.. واتحاد الطوائف والاتجاهات المختلفة، وتآخى المسلمين والمسيحيين من أجل الوطن.. كما شمل العدد الأول أيضًا عددًا من الأوامر والتشريعات مثل نظام جمع العوائد والضرائب.. وكذلك المشروعات المزمع تنفيذها مثل تشغيل العاطلين.. وردم البرك والمستنقعات وتشجيع بعض المشروعات الصناعية الصغيرة.

وما كاد «أحمد» ينتهى من تنسيق كل شىء حسبما اتفق مع «يوسف الجندى»، حتى ارتمى مجهدًا على كرسى خشبى متهالك، ورجا صاحب المطبعة أن يعد له قدحًا من الشاى.. لكن الشيخ «عنبة» دخل فجأة يحمل فى يده مقالاً قصيرًا بعنوان «خطورة ثورية أخرى».. وذهل «أحمد أفندى شلبى» وهو يقرأ كلمات الشيخ.. وأخذ يرفع صوته وهو يقرأ:

«إننا فى مسيس الحاجة إلى ثورة اقتصادية . . أجل . . لن يتحرر الشعب إلا إذا ضمن أرزاقه . . وأعيد توزيع الثروة توزيعًا عادلاً . . إن أمراء البيت السلطانى يملكون أغلب الأراضى الزراعية، وكذلك الباشاوات وبعض الأجانب المستغلين . . فلماذا لا نعطى الفلاح المعدم فدانًا أو فدانين من هذه الأرض على أن يدفع أثمانها على أقساط طويلة؟! لماذا لا نحدد إيجارات الأرض . . ونحمى الفلاحين من استغلال الملاك؟! ثم لماذا لا نفرض الرقابة على كبار التجار الذين يستغلون الظروف . . ويرفعون أثمان الحاجات بلا مبرر؟.

وتوقف «أحمد» عن القراءة . . كان قلبه يدق . . كان حائرًا بين جدية الأحلام التى تنتعش فى قلب«الشيخ عنبة» وبين الواقع المر الأليم . . الكلمات جميلة وقد تكون عادلة . . لكن «أحمد» يرفضها . . يرفضها دون أن يدرى سببًا لذلك، ولعل السبب هو أن الثروة هكذا كانت، ولم يحاول أحد من قبل أو -بتعبير أدق- لم يجرؤ أحد على التفكير فى إعادة توزيعها .

وقال «أحمد» للشيخ «عنبة» :

- هذا كلام خطير، ومخالف للدستور .

فقال «عنبة» ساخرًا :

- والجمهورية التى أعلنتموها أيضًا خطيرة ومخالفة للدستور .

- لكن . .

- لكن ماذا يا ولدى؟ . . هذا هو الإصلاح الحقيقى إن أردت إصلاحًا.

وصمت «أحمد» برهة ثم قال:

- «معنى ذلك أن ينشق الشعب على نفسه . . أن يعادينا الباشاوت والبكوات وكبار الملاك والأجانب . . وسيكون ذلك تكأة لتدخل أعنف من القوات الإنجليزية . . إن ما تدعو إليه معركة أخرى أكبر وأخطر من المعركة السياسية التى يخوض غمارها الشعب . . إن هذا الكلام معناه فشل أكيد للثورة . . أنت تسبق الأحداث يا شيخ «عنبة» . . ونحن لا نستطيع أن نصعد السلم دفعة واحدة . .

- كنت واثقًا ألا أجد من يفهمنى.

- قيامنا بأى إصلاح اجتماعى أو اقتصادى فى ظل الاستعمار أمر شبه مستحيل.

فتمتم «الشيخ عنبة» قائلاً:

- يقول حبيبى إن الـ . . .

فقاطعه «أحمد» قائلاً:

- لسوف أذهب بالمقالة للأستاذ «يوسف جندى» وأعرضها عليه.

وعاد «أحمد» بعد دقائق، ثم قدم المقالة للشيخ «عنبة». . فقرأ فى رأس الصفحة بالحبر الأحمر: «اقتراح جميل، لكن لا داعى لنشره لأسباب عدة».

وبان الضيق فى عينى «الشيخ عنبة» وأخذ يردد:

- كيف يكون جميلاً ولا تنشرونه؟! إن رأسى يدور. . ما هى الأسباب؟ أريد أن أعرف. . ألم يحدث شىء مثل هذا فى روسيا القيصرية منذ عامين؟! ألم يستولِ «محمد على» على الأرض وجعلها ملكًا خاصًا له، وأعاد توزيعها بطريقته وإن كانت جائرة. . على الفلاحين المساكين؟! ليس هناك مالك سوى الله. . ونحن مستخلفون فى مال الله. . والحاكم له الحق أن يعيد توزيع الثروة وينظمها بالعدل متى رأى ذلك فى صالح الشعب. . ليكن. . لكنى مؤمن بكل حرف كتبته، وستظل ثورتنا ناقصة ما لم يراعَ هذا الجانب المهم. . والدنيا تتغير يا «أحمد أفندى»، من يدرى؟! قد يأتى يوم ترى فيه أفكارى النور. . آه لو كان يطاع لقصير أمر!!

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى

فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

لكن آلات الطباعة تدور فى عنف، و«أحمد» مشغول بالتصحيح والمراجعة، والعمال يسيل عرقهم برغم برودة الجو،

و«الشيخ عنبة» يطوى ورقته، ويضعها فى جيبه آسفًا، و«أحمد شلبى» ينظر إليه فى أسى، ويقول:

- لم يأتِ دور مقالتك بعد..

- ومتى يكون ذلك؟..

- بعد شهر.. بعد سنة.. بعد أربعين سنة.. الله أعلم..

وأول مرة يخرج «عنبة» عن طوره، ويرمق «أحمد» بنظرات حديدية غاضبة، ويصرخ:

- يقول حبيبى: شر الأزمنة أن يتبجح الجاهل، ويسكت العاقل.

فيبتسم «أحمد» ويقول:

- الله يسامحك ياشيخ «عنبة».. لكل الناس أحلام وأمانٍ.. لكن.. آه.. اليد قصيرة، والعين بصيرة.. وربنا يسترها معنا..

وخرج «الشيخ عنبة».

وبقى «أحمد» ساهرًا..

غدًا تصدر جريدة «الجمهور».

غدًا تصدر فى «زفتى» أول جريدة حرة لا تأخذ الإعانات من السراى أو الإنجليز.. ولا تكتب الأخبار الكاذبة.. ولا تبيع نفسها لحزب من الأحزاب، أو أمير من الأمراء، أو باشا من الباشاوات.

غدًا تصدر أول صحيفة حرة بكل معنى الكلمة، وفى صدرها إعلان جمهورية «زفتى» . .

وأغفى وهو مضطجع على الكرسى، لم يزعجه ضجيج الماكينات. ولم يصحَ إلا على صوت «الشيخ عجينة» صاحب المطبعة يقول له:

- انظر . . لقد ولدت جريدتنا الحرة مع مشرق الشمس.



•• الفصل التاسع عشر

كان «العمدة» مضطجعًا على سريره هادئًا، ووقفت «صابرين» منحنية على منضدة خشبية تعد له كوبًا من عصير الليمون، وأضواء «لمبة الجاز» تنعكس على محياها الوردى فتزيد من فتنتها، وضفيرة ترتمى على صدرها الناهد توحى بأن «صابرين» قد تغيرت تمامًا، وتمتم أبوها:

- فيم كنت تقرئين؟

- وصلتنى جريدة الجمهور.. إنها جميلة وإن كانت ناقصة.

- وما وجه النقص فيها؟ إنها جريدة محلية صغيرة.. ثم إنها تجربة.. مجرد تجربة.

قالت «صابرين».. وهى تلقى بعيدًا ببقايا ليمونه إلى سلة مهملات:

- ليس فيها شيء عن المرأة.. ليتهم يعيدون كتابة مقالات «قاسم أمين» فيها.

قال أبوها فى اعتراض :

- أعوذ بالله . . إنه رجل خارج على الدين .

- من قال ذلك يا أبى؟ نحن نظلمه .

- يا ابنتى . . الحريم للبيت . . ولخدمة أزواجهن وأولادهن ولا شيء غير ذلك .

قالت «صابرين» :

- ثلاثة أرباع نساء القرية يذهبن للعمل فى الغيط .

- وماذا فى ذلك؟

- أعنى أن الغيط كالمدرسة . . كالدواوين . . فكيف نصرح للمرأة بالذهاب إلى الغيط ولانسمح لها بأن تتعلم أو تتوظف .

ومع قوة حجتها ووضوحها إلا أن أباها راوغ قائلاً :

- لقد درجنا على أن المرأة للبيت . . والتعليم لا يزيدها إلا خلاعة وتحرراً . . ألم تسمعى عن الفضائح التى يرتكبها نساء الإفرنج المتبرجات؟

ولم يكن هناك جدوى من مناقشة أبيها . . فلأبيها رأيه الذى لا يحيد عنه . . وتقاليده العتيقة التى لا يمكنه أن يتنكر لها ، وهى ترى أن «قاسم أمين» رجل متطور ينصف المرأة ، ويدافع عن قضيتها وأغلب آرائه لا تتناقض مع الدين ، ولا تخرج من دائرة التربية الإسلامية .

وتذكرت «صابرين» آنذاك مشكلتها الخاصة، كم مرة فكرت فى أن تواجه أباها . . وأن تعبر له بصدق عن مشاعرها . . لكنها مجرد هواجس سرعان ما تذوب إذا ما طلعت الشمس، أو التقت عيناها بعينى والدها الصارم المحافظ . . لكن الظروف مواتية الآن، وليس معهما أحد، وأمها مشغولة عنها . . واقتربت «صابرين» من أبيها . . لسوف تستجمع شجاعتها كلها هذه المرة، وتناقش أباها فى الأمر، فإن فشلت فى إقناعه فلتعتبر الموقف متجمداً لم يطرأ عليه أدنى تغيير . . وإن وهبها الله النجاح، فذلك غاية المنى . . إن الأمور الكبيرة، أو المشاكل المستعصية لا تحل إلا بكثير من الشجاعة والحزم . . وقالت «صابرين» فجأة وكل جسدها ينتفض :

- أبى .

وخفضت رأسها . . بينما قال أبوها :

- ماذا؟

- إنه لأمر شائك .

فضحك الرجل قائلاً :

- لا بد وأنه موضوع الزواج . . أعرف أن ابن خالك متعجل . . وقد تكونين أنت الأخرى استبطأت خطواتى . . لكن ثقى أن الأمر سيتم بسرعة . . وعلى صورة ترضيك وترضيه هو الآخر .

قالت بعد أن زمت شفتيها :

- ما قصدت ذلك يا أبى .

- ماذا إذن؟

وألقت بكلماتها كالقنبلة :

- أنا لا أريد أن أتزوجه .

وانتفض أبوها جالسًا . . وقال وهو يرمقها بنظرات حائرة :

- لعلك تمزحين .

- أنا أعى ما أقول . . لا أريد أن أتزوجه .

- أنت؟ مَنْ أنت؟ هل جننت يا «صابرين»؟ هذه أول حادثة من نوعها فى أسرتنا .

قالت وقد احتقن وجهها :

- أنا ابنتك . . أنا إنسانة أحس . . ألم يقل الشرع أن على ولى الأمر أن يأخذ رأى الفتاة فى موضوع زواجها؟

فهز العمدة رأسه فى سخرية ، وتمتم :

- جميل . . جميل . . خزعبلات ملأت بها رأسك من الكتب والمجلات الخليعة . . هذه هى نتيجة مبادئ «قاسم أمين» ومن على شاكلته . . ألا فاسمعى . . ستتزوجين ابن خالك على الرغم منك . . ستتزوجينه لأن أباك قال ذلك . . كلمتى كلمة رجل ، وقد أعلنتها على الملأ ، أتريدين أن تمرغى شرف أبيك وكرامته فى التراب؟ يا للعار!

كان أبوها ينتفض . . ويده ترتعش وكوب العصير يوشك أن يبلل أكمامه وملاءة السرير، وكانت «صابرين» تكتم دموعها، وتحبس شهقاتها . . وتمتمت «صابرين» :

- كنت أحسبنى أطالب بحقى الشرعى . . من أبى الذى يحبنى ويرجو لى السعادة .

فقال ثائرًا :

- الشرع أنا الذى أعرفه لا أنت . . وسعادتك أعرف أين تكون . . أنت طائشة، تعيشين فى عالم من الخزعبلات والبدع . . لم تقولى لى، ممن تريدين إذن الزواج؟ إنها مسألة تهمنى أيضًا . . يجب أن أعرف حتى أطمئن على مصيرك . . ومن يدرى؟ قد أنحاز إلى صفك .

فأغضت برأسها، وهمست :

- أمى تعرف .

- ثم تخفى عنى، هذا جميل . . يا للخيبة الشاملة التى انتابتك أنت وأمك . . لكنك أنت أيضًا تعرفين .

ولعبت بها الحيرة، واستبد الخوف بقلبها المعذب . . لكنها فرصتها الأخيرة . . لماذا لا تلقى الضوء الكاشف على الأمر كله؟ لهذا اندفعت قائلة :

- أحمد أفندى شلبى .

فشهق قائلاً:

- أحمد هذا الذى كنت أحسبه من أولياء الله الصالحين؟ كيف عرفت ذلك؟ خبرينى.. إننى أعيش هنا مغفلاً. تكلمى يا بنت «خلاف عبد المتجلى» الرجل المحترم.

قالت متلعثمة:

- لم آتِ منكرًا، ولم أرتكب ما يجرح كرامتنا.. نحن أشراف.. وسنبقى أشرافًا طول حياتنا.

- لم تجيبى على سؤالى.. كيف حدث هذا؟

فاعتصمت بالصمت.. لم ترَ فائدة تذكر من صدقها وتعبيرها المخلص عن حقيقة أفكارها ومشاعرها، وأبوها رجل صلب لاينثنى عن معتقداته وإن كانت خاطئة، ونظر إليها أبوها فى غيظ، وتمنى فى هذه اللحظات أن ينقض على عنقها ويعتصره اعتصاراً، وكاد يجن جنونه، فقذف بكوب الليمون فى وجهها، وصرخ:

- اخرجى من أمامى يا عاهرة.. اخرجى..؟

عندما انفرد الزوج بزوجه فى وقت متأخر من الليل طرحا الموضوع على بساط البحث، تناولاه من كل زواياه، والتقت وجهات نظرهما عند عدة نقط.. أولاها أن «صابرين».. مخطئة وقليلة الأدب إذ إنها كشفت برقع الحياء، وتكلمت بوقاحة، والثانية أن العمدة لايصح أن يتنكر للوعد الذى قطعه على نفسه

بتزويج ابنته من ابن خالها . . والثالثة أن «أحمد أفندى» شاب ممتاز لا شك فى ذلك، وأنه يرجح على ابن الخال فى ثقافته ومركزه وسمعته . . لكن لا جدوى من هذا كله . . وأخيراً قال العمدة :

- أراك فى صف ابنتك مع ذلك . . ويدهشنى أنك تفضلين أحمد على ابن أخيك .

- الحق معك . . لكن زوجة أخى امرأة سيئة . . ومصلحة ابنتى فوق كل اعتبار . . والأمر لك أولاً وأخيراً يا خلاف .

كان العمدة حاسمًا فى كلماته . . لكنه- بينه وبين نفسه- وقع فى حيرة قاتلة . . وقلق بالغ . . إن كلمات ابنته قد بلغت أعماقه . . واقتنع بها ضميره، وإن تظاهر بخلاف ذلك . . وبدت له «صابرين» فى صورة الفتاة المعذبة البائسة . . ثم إنه يحب «أحمد أفندى» ويحترمه . . ويعتبره أنموذجًا فذًا للشاب الصالح المجتهد النبيل . . وهل يستطيع أن ينسى سيرته العطرة بين الشباب . . وقيامه بمعاونته والسهر على راحته وهو لدى الطبيب بالقاهرة . . ثم ذلك الموقف الرائع الذى وقفه بالأمس وثورة زفتى؟ لقد تمنى آنذاك أن يكون له ابن مثل أحمد . . بل إنه احتضن «عبد العزيز شلبى» مهنئًا على التوفيق والشجاعة التى وهبها الله لابنه . .

ومع ذلك فقد هدر فى وجه زوجه :

- لا أستطيع . . لا أستطيع . . لقد أعطيته كلمة . . والناس يعرفون من أنا عندما أتكلم .

قالت زوجه ضائقة :

- دائمًا الناس . . الناس . . إنه أمر يتعلق بابنتك وقبولها .

فقهقه قائلاً :

- هذه هى الكارثة . . يقول الناس إن «صابرين» أخلفت وعد أبيها . . ونفّذت رغباتها رغم أنفه . . آه . . لقد أصبحت فى أخريات أيامى، ويجب أن أموت دون ضجيج . . لا يصح أن أمضى إلى قبرى ومعى فضيحة . . «صابرين» ستتزوج ابن أخيك . . ويجب أن تشكرينى على ذلك . .

حاول أن ينام .

إن روحه تتعذب .

كان دائمًا يحضر لصابرين ما تريد من طعام وشراب وملبس . . ورغباتها دائمًا مجابة . . ولأول مرة فى حياته يمتنع عن تلبية رغبتها فى الزواج من «أحمد» . . لقد منحها أشياء كثيرة طول حياته . . لكنه اليوم يحرمها شيئًا كبيرًا . . يعدل كل ما فات من أمنيات .

إن عذابه الأكبر سببه أن ابنته على حق . . وأنه يقف فى طريقها من أجل أوضاع اجتماعية ألفها ردحًا طويلاً من الزمن وحاول أن ينام .

لكن كيف ينام؟

وقال وهو بين اليقظة والمنام :

- الثورة فى كل مكان . . لقد أعلنت زفتى الجمهورية . والثورة هنا فى بيتى . . وصابرين تريد هى الأخرى أن تعلن الجمهورية . . لا حول ولا قوة إلا بالله .

وهتفت زوجته فى استغراب :

- ماذا تقول؟

لكنه لم يجب .

وانبعث غطيطه خافتًا رتيبًا .

وهمهمت وهى تعطيه ظهرها :

- الرجل يهذى .



٥٥ الفصل العشرون

حقًا إن الظروف لم تكن مواتية فى هذه الأثناء للحديث عن الزواج، وكان أحمد مشغولاً - معظم وقته - بالثورة وتنظيماتها . . لكن الظروف كانت أقوى منه، وكان لا بد أن يتصرف بسرعة، ففكر فى الاتصال مرة ثانية بالشيخ «عنبة»، لكى يتفاهم مع والدها فى أمر الزواج أولاً، ثم يتقدم لحضرة العمدة كى يناقش معه فى الأمر . . لأنه يعلم أن «صابرين» مخطوبة لابن خالها، فالمسألة إذن شائكة، وتحتاج لمزيد من الحرص والدقة . . حتى لا يوقع العمدة فى ورطة، ولكى لا يجرح إحساس ابن الخال . . وفكر «أحمد» فى ترك الأمر كلية تجنبًا لهذه المشاكل كلها، لكنه عاد وتذكر أن «صابرين» - وهى صاحبة الشأن - ترفض الزواج من ابن خالها، وأنه هو الآخر «أحمد» يرغب فى الزواج منها رغبة جارفة . . تستولى على كل مشاعره وأفكاره . . كان يؤمن أنه و«صابرين» على حق، والحق فوق كل اعتبار، ولا يمكن أن يقرر أن «صابرين» تعامل كسلعة تباع وتشترى دون أن يكون لها أقل رأى فى مصيرها .

واقتنع «عنبة» لكنه كان مدركًا حرج الموقف، ووقع هو الآخر في حيرة بالغة . . لكن «أحمد» قال له :

- إن «صابرين» قد بلغت سن الرشد، يمكنها أن تملى إرادتها بطريقة حاسمة . . لكنها لا تود أن تؤذى مشاعر أبيها .

فسدد إليه «عنبة» نظرات فاحصة قائلاً :

- هذا منطق تهديد . .

- لكنه حق . . وأرجو ألا تفكر بعقلية شيخ قد تخطى الستين . . بل عالج الأمر متصوراً أنك فى أوائل العقد الثالث من عمرك . . ثم إنك يا شيخ «عنبة» لم تجرب الزواج من قبل . . أليس كذلك؟

فهمس «الشيخ عنبة» :

- أتنكر عليّ ذلك؟ ! يقول حبيبى : أما الزواج بالجارية الحسناء . . فما أنا بالكفء لها .

- لكنك تستطيع الزواج من أرملة فى الخمسين .

- أوه . . لقد فات الأوان .

- لكنه لم يفت بالنسبة لى على الأقل .

- معك حق . .

كان «عنبة» صريحًا فى حديثه مع العمدة، كما كان مقدراً لكافة الظروف والاحتمالات، واعترف بحرج العمدة ودقة موقفه، ثم قال :

- السؤال المهم: ألديك اعتراض على «أحمد أفندى»؟

- مستحيل.. ولكن لماذا لم يتقدم من قبل؟!

- لا داعي للعتاب، ولنفكر فى حل..

- أجل.. أى حل لا يؤثر على كرامتى.. أو يجرح كبرياء الآخرين..

فهز «عنبة» رأسه قائلاً:

- لا بد من التضحية.. ومستحيل أن يأتى الحل بدون ذلك.

- أستطيع أن أضحى بنفسى.. أما كرامتى فلا.

- هناك طريق وسط يا عمدة.

- ما هو؟!

تأجيل أمر عقد القران أولاً.

- ما زلنا فى حاجة إلى الحل.. التأجيل ليس حلاً.

- لكنه يعطى الفرصة لمزيد من التفكير والتروى، وقد يقدم القدر الحل الذى نريد من حيث لا نشعر.

وفى قريتنا لا يظل سر من الأسرار طى الكتمان فترة طويلة..

قد يستطيع الرجال أن يغلقوا أفواههم، لكن النساء غير ذلك.. إنهن يعشقن الثرثرة.. ويطلقن لخيالهن العنان.. ويخترعن الحكايات والتفاصيل، والحقيقة أن تبادل الزيارات بين

بيتى العمدة و«عبد العزيز شلبى» قد ازداد معدله . . بصورة ملفتة للنظر . . ولم يكن هناك مناص من أن يتحدث النسوة فى أمر الزواج ، ولا بد أن الخادمات يحاولن جاهدات أن يتلقفن الأنباء المثيرة . . ويمشين بها بين الناس فى أنحاء القرية . . ثم إن «صابرين» قد فضح ما يخفيه قلبها من أسرار . . لم تفكر مرة أن ترسل منديلاً هدية إلى خطيبها . . ولم تبعث إليه بزجاجة من العطر . . وإذا ما أرسل إليها خطيبها هدية من الهدايا تجاهلتها . . أو رمت بها فى ركن من أركان صيوان ملابسها . . دون اكتراث . . وكان استقبالها لأهل العريس «وهم أخوالها» استقبالاً فاترًا . . لا يحمل سوى الرفض والضيق والتبرم . . ولم يفت هذا على أهل العريس . . لقد أدركوه بداهة . . لكنهم أقنعوا أنفسهم بأن هذا الأمر لا قيمة له . . إن رضا أبيها «حضرة العمدة» فيه الكفاية . . وليس «لصابرين» رأى أو تأثير فى الأمر .

لكن الموقف تغير . . لقد ظهر رجل جديد . . له وزنه واعتباره . . رجل يستطيع أن يرفع رأسه . . وأن يتفوق على الخطيب المعروف ، وسارت الشائعات فى كل مكان ، وتحول تجاهل العريس - ابن الخال - إلى قلق ، والضيق أصبح غضبًا ، وفكروا أن يقصدوا حضرة «العمدة» ، ويشرحوا له الأمر ، ثم يطلبوا منه الوفاء بوعده ، وإتمام القران على الفور . . وخاصة أنه ليس هناك ما يمنع .

لكن حدثًا خطيرًا هز أرجاء القرية . . فغطى على كل شىء ما عداه . . لقد ذهب «أحمد» إلى طنطا لمعاودة الاتصال بالثوار هناك . . وإطلاعهم على جريدة «الجمهور» وآخر التطورات فى زفتى . . واشترك فى مظاهرة ضخمة خرجت من المدرسة الثانوية، والتقت بطلاب «الجامع الأحمدى» ، واتجهت- سلمية- صوب المحطة . . فانضم إليها عدد ضخم من الأهالى يهتفون بالحرية والاستقلال . وإلغاء الحماية البريطانية على مصر .

لكن كيف يسكت الجنود الإنجليز المرابطون بالمحطة . . وهم يستمعون إلى هتافات الحرية والاستقلال؟ لقد أثبتوا طوال أيام أنهم أعداء الحياة والحرية . . وأنهم يدسون على كل القيم الشريفة فداء لإمبراطوريتهم الضخمة . . ومجدهم الحربى . . واستغلالهم المادى الصرف لشعوب العالم .

والقصة مكررة معادة . . رصاصات غادرة تنطلق على المتظاهرين . . فيسقطون مضرجين بدمائهم، ومئات يساقون إلى السجون . . المكتظة بالأحرار . . ومعاملة قاسية تأنف منها الحيوانات فما بالك بالإنسان الذى يشعر ويتألم، ووقف «أحمد» مذهولاً والرصاصات تتطاير يمينًا يسارًا وفوق رأسه . . وشعر بيد تقبض على ذراعه، وتجره إلى الخلف . . وسمع صوتًا يقول :

- هل جننت؟! أنت تنتحر . . كيف تبيح لنفسك الوقوف هكذا فى وجه الرصاص الطائش؟

ونظر إلى المتحدث . . وكان «الشيخ عنبة» . . وصرخ «الشيخ عنبة» قائلاً :

- أنت شاحب الوجه ، تكاد يغمى عليك . . ماذا؟ هل أصبت؟

كان خيط من دماء يتسرب أسفل سرواله . . ويتلوى على الأرض . . واستند «أحمد» على كتف «الشيخ» العجوز . . الذى زحف به إلى زقاق قريب ، ثم كشف عن ساقه . . فوجد أن رصاصة قد استقرت فى جانب الفخذ الأيسر من الجهة الخارجية .

- أنت فى حاجة إلى إسعاف سريع .

- خذ هذا المنديل وأحكم رباطها جيدًا حتى يتوقف النزيف . . إنى سعيد . . لو مت الآن . . لكنت أسعد البشر . . ماذا ؟ الناس يموتون كل يوم . . عشرات منهم يموتون دون أن يعرف أحد لهم اسمًا . . انظر إلى ميدان المحطة . . إن عددًا كبيرًا يئن وينزف دون أن يجرؤ أحد على إسعافهم . . لأن من يذهب إليهم سوف يرقد إلى جوارهم . . آه . . أشعر بدوار . . هذا هو السلام . . السلام الذى يتحدث عنه «ويلسون» ومؤتمر الصلح . . وأبطال الحرب العالمية الكبرى .

فقال «عنبة» وقد ارتسم القلق على وجهه :

- لتكف عن الحديث . . لا جدوى من ذلك . . لسوف أنقلك إلى طبيب خاص أعرفه . . ويعرف والدك .

فصرخ أحمد أفندى :

- مستحيل . . لسوف أذهب مع باقى الجرحى والقتلى إلى المستشفى الأميرى . . إن معركتنا واحدة . . ومصيرنا واحد لن أتميز على أحد، سأرقد إلى جوارهم، وأستمع إلى أناتهم وآهاتهم . . وأرى دماءهم النازفة . . إنه شىء مرعب حقًا . . لكنى سأسعد فيه . . سأتلقى فيه دروسًا لن أنساها طول حياتى . . لسوف ترتسم فى مخيلتى دائمًا وحشية هؤلاء الحيوانات أعداء الحياة . . سأظل أكرههم . . وأكرههم . . وأكرههم . . وأعلم أولادى حكاية أعداء الحياة .

وفى المستشفى الأميرى كان الجو مكفهرًا حزينًا . . والموتى يرقدون ترف حولهم دموع غالية كثيرة . . وأخذ «أحمد» بعد أن استخرجت رصاصته، وأصبح فى حالة جيدة . . يتصفح الوجوه الشاحبة النائمة إلى الأبد . . ثم وقعت عيناه على شخص بعينه . . كان شابًا صغيرًا لا يتجاوز الخامسة عشرة، يلبس عمامة قد تلوث شالها الأبيض بالدم، ويلبس «كاكولة» من قماش رخيص لم تسلم هى الأخرى من بقع الدم الحمراء . . وصرخ كالمجنون :

- أبو الذهب .

وارتمى عليه يقبله ويحتضنه . . وبلل وجهه الشاحب بالدموع . . كان «أبو الذهب» طالبًا أزهريًا من قريتنا، أبوه ذهب مع العمال بأمر السلطات إلى بعيد، ولم يعد، وكانت أمه «الحاجة فاطمة زيدان»

ليس لها غيره بعد أن ذهب أبوه . . كانت تبيع «محلول القطرة» لأصحاب العيون المريضة مقابل ملاليم، ومن هذه الملاليم تنفق على نفسها، وعلى ولدها في «الجامع الأحمدي».

وشعر «أحمد» بيد تربت على كتفه في حنان، ونظر وعيناه ممتلئتان بالدموع . . كان الطبيب يقف قبالته :

- هل تعرفه . . ؟!

قال «أحمد» وهو يجفف دموعه :

- أجل واحد من قريتنا .

- كان ضمن المجهولين . . وكنا سننقله إلى مقابر الصدقة الآن .

وفوجئت القرية بعودة فتاها الشهيد «أبو الذهب» وخرجت عن بكرة أبيها تشيعه إلى مقره الأخير، والدموع على كل خد . . حتى «الخواجة يني» كان في مقدمة المشيعين، وكان «أحمد» يسير متكئًا على كتف أحد الرجال .

وكانت أم الشهيد تصرخ من آن لآخر صرخة تمزق نياط القلوب قائلة :

- ولدي . .

فتثور في النفوس مشاعر مريرة مشوبة بالغيظ، ويصر «أحمد» على أسنانه . . ويكظم أساه . . ويهز الشيخ «عبد العزيز شلبي» رأسه قائلاً : «لا حول ولا قوة إلا بالله»، ويتذكر أن ابنه كان معرضًا

للموت . . فيغوص قلبه رعبًا، وإشفاقًا من هول المصير الذى كان يمكن أن يتلقاه وحيده، وفكر عشرات المرات وهو يسير فى الجنازة مطأطئ الرأس . . أن يحبس ولده فى البيت ولا يتركه يخرج مرة أخرى فى هذه الأجواء العاصفة، وكفى ما قام به من أعمال وما تعرض له من مخاطر، لكنه يعود ويخجل من أفكاره تلك . . إذا لو فعل كل واحد ما يفكر فيه، لما قامت الثورة ولما سقط الشهداء، ولما تقدمت القضية الوطنية خطوة واحدة إلى الأمام . . إن لكل شىء ثمنًا، وثمن الحرية التضحيات، والأعمال بيد الله . . ولن يموت ولده ناقص عمر، فليترك الأمر لله . . وليكتفِ بتحذير ابنه كى يعتصم بالحرص والتعقل . . ويفيق الشيخ «عبد العزيز» على صوت والدة الشهيد وهى تردد الكلمة التى لا تردد سواها :

– ولدى . .

فتنهمر دموعه، وينظر إلى ولده الشاحب المتكئ على جاره من خلال الدموع، فيحمد الله أن كتب له النجاة .

وتنام القرية . .

وتشوب أحلامها ذكريات مؤرقة حزينة .

ولا يأتى الصباح إلا ويكون فى بيت العمدة مجلس للنظر فى موضوع «صابرين» . . لقد جاءت زوجة خالها وابن خالها واجمين مضطربين . . فقد نما إلى سمعهما أن «صابرين» قد أتت عملاً شائنًا الليلة الماضية إذا هرولت إلى بيت «شلبى»، واندفعت إلى حجرة

«أحمد» كالمجنونة وأخذت تتحسس إصابته أمام الجميع وتبكى . . لم تخجل أو تحتشم والعيون ترمقها . . وكان لا بد أن يكون رأى قاطع فى الأمر . . لهذا جاء ابن الخال وأمه . . وطلبا من العمدة تحديد موعد للزواج .

قال العمدة :

- أنتم ترون القرية فى حداد .

- سنراعى شعور الجميع عند الزفاف ، فلن يكون هناك طبل ولا زمر .

قال العمدة فى ضيق :

- ولماذا لا نصبر ؟ !

- الصبر مستحيل . .

- ما معنى ذلك ؟ !

قالها العمدة فى دهشة ، فرد العريس المنتظر :

- إنها مسألة تتعلق بالكرامة . . والحديث فيها قد يسىء إليك .

- لا أفهم شيئًا . . هذه ألغاز .

قال الشاب فى طيش وقد أخرجته الغيرة عن طوره :

- إن سيرة «صابرين» و«أحمد شلبى» على كل لسان .

فهبّ العمدة واقفًا وصرخ فى حدة :

- لو لم تكونا فى بيتى لكان لى رد آخر على سوء أدبك .

- أنا لا أنطق إلا بالحق .

- أنت تلوث شرفى بهذه الكلمات . . ثم كيف تقبل على نفسك أن تطلب يد فتاة كهذه . . إما أنك كاذب أو بلا كبرياء ، وكلا الأمر مخجل .

فقال الشاب ساهمًا :

- معنى ذلك أنك ترفض؟

- ليكن . .

- وكلمتك السابقة؟

- لم تحترم شعورى . . فكيف أحترم كلمتى مع طائش مثلك يريد أن يوصمنا بالعار .

وطوال الوقت كانت الأم تحاول جاهدة أن توقف تيار المناقشة الحادة . . حتى لا تتطور الأمور إلى أسوأ . . ولكن ولدها كان مدفوعًا بغيرته ولهفته . . إذ كان يحب «صابرين» فعلاً . . وكان العمدة ثائرًا من أجل كرامته . . ومستجيبًا لدوافع نفسه الدفينة ، ومعبرًا عن تلك الرغبة الحبيسة . . رغبته فى ألا يتم الزواج من ابن الخال .

وقالت الأم بعد فترة الصمت والتوتر :

- حقك على يا حضرة العمدة . . إن ابنى هو ابنك ، ولك أن تؤدبه بالطريقة التى ترضيك .

قال العمدة وقد تصبب عرقه :

- لندع الأمر الآن .

فرد الشاب :

- نريد موعدًا محددًا للزفاف .

قال العمدة :

- أنا لا أتلقى أوامر من أحد .

- ما جئنا ألا لنصل لتحديد قاطع .

- أتريد الرأى القاطع؟

قال الشاب مرتجفًا :

- أجل .

- إذن فثق أنى لن أزوجك ابنتى .

وانقضّت كلمات العمدة عليهما كالصاعقة . . فانصرفا دون أن ينبسا ببنت شفة .

وتمتم العمدة وقد أصبح وحده :

- الحمد لله .

●●●

•• الفصل الحادى والعشرون

«الجنود الأستراليون يزحفون صوب: زفتى».

شاع هذا النبأ فى زفتى وفى القرى التابعة لها، وترددت أصداؤه فى جنبات المركز.. ليست المسألة إذن مجرد إعلان الاستقلال فى جـــزء من أرض الوطن المحـــتل، وإنما المهـم هو حـــمـــاية هذا الاستقلال، والدفاع عنه، وأخذ الخواجة «ينى» يضحك ملء فيه، ويمازح «الشيخ عنبة» قائلاً:

- الجمهورية الأولى معرضة للخطر يا «شيخ عنبة».

فقال «عنبة» آسفًا:

- أحلام اليوم قد تكون حقائق الغد.

- لكنها جمهورية مضحكة على أى حال.

- لن تستسلم يا خواجة.

- هل تضـايقت؟ إنه ليـشـرفنى أن أكـون مـواطنًا حـرًا فى جـمـهـورية ديمقـراطيـة، ولو كـانت زفتى.. لكن الذى يدهشنى هو.. كـيـف صـورت لكم أوهـامكم أنكم سـتنجـحـون فى هذا

العمل الخطير، كان يكفى أن تشاركوا فى الثورة بالوسائل المعروفة فى كل أنحاء القطر.

قال «عنبة»:

- لعلى لا أذيع سرًا حين أقول.. إن بعض الثوار كانوا ينوون عزل السلطان.

قال الخواجة:

- السلطان لا يعزل فى وجود الإنجليز.

هز «عنبة» رأسه قائلاً:

- هذا حق.. لكننا سنقاوم.

وسادت الناس فورة من الحماس المجنون.. وزحف بعض الأهلين نحو زفتى للمشاركة فى الدفاع عنها بالأسلحة البدائية.. الفئوس والعصى والبنادق العتيقة.. ووافق «الشيخ عنبة» على ذلك.. وأخذ «أحمد أفندى شلبى» يرتدى ملابسه مزمعًا السفر، ودخلت أمه:

- لن أتركك تخرج إلا على جثتى.

فنظر إليها «أحمد» مبهوتًا:

- لا داعى لهذا الكلام.. لست طفلاً.. إننى رجل وأعرف ماذا أفعل.

- لن أتراجع.

- يا أمى.

- لم تزل جريحًا.. ومقاومة القوات المسلحة المدربة جنون..

كان «أحمد» يشعر حقيقة بالألم فى فخذه، ولم يكن على استعداد لممارسة أى نشاط عنيف مما تحتاجه المعارك الدامية، لكن كيف يتخلى عن المعركة وهو عضو فى اللجنة.. ومشرف على جريدة الجمهور.. وواحد من الطليعة التى تتحمل جزءًا كبيرًا من المسئولية!

وسافر «الشيخ عنبة» ولكن «أحمد» لم يسافر.. ورأى «الشيخ عنبة» فى زفتى عددًا وفيرًا من أهالى المدينة والقرى المجاورة يحفرون الخنادق، ويقيمون الاستحكامات.. ويوزعون قواتهم فى مختلف الأماكن.. استعدادًا للمعركة، ولم يكن هناك فيهم من يفكر فى أن المقاومة لا جدوى منها، إنها معركة خاسرة.. جمهورية بلا جيش وبلا سلاح، محدودة المساحة.. قليلة السكان، وتريد أن تقاوم قوات الإمبراطورية الضخمة التى انتصرت فى حرب عالمية طاحنة.

وجاء «إسماعيل بك حمد» مأمور المركز.. لم تنطمس من فوق ملامحه أمارات الطيبة والثائر.. كان الرجل ينظر إلى الأمر من زاوية سليمة، ويدرك خطورة الأمر ومضاعفاته إذا ما أصر الأهلون على المقاومة.. وكان هو الآخر- كممثل للسلطة الإدارية- فى وضع حرج.. إذ كيف يبيح لنفسه أن يشهد تلك التصرفات الخارجية التى

تتصل مباشرة بوضع السلطان كوارث للعرش؟ واعتصم المأمور بالحيلة والإقناع الهادئ، وأخذ يذكر لهم احتمالات الموقف المنتظر، والنتائج المترتبة على المقاومة، وما سيجره ذلك من وبال عليه وعلى الأهلين . . واستطاع المأمور أن يقنع عدداً كبيراً منهم . . وحاول جاهداً أن يبسط جو الهدوء والسكينة على المدينة التى لم يستمر حلمها طويلاً، وحينما حاصرت القوات الأسترالية المدينة، وألقت بعض قذائفها، تقدم إليهم، وهون لهم الأمر، وأفهمهم أنه لم يحدث شيء ذو بال وأن المسألة لم تخرج عن كونها تنظيماً محلياً، بعد أن اضطرب حبل الأمن ببعض الرجال المستنيرين . . وأن المدينة تفتح أبوابها لهم . . دون داعٍ لإراقة الدماء . . أو اتخاذ الوسائل العنيفة طريقاً لبسط النفوذ .

ودقت الأقدام الغربية أرض المدينة التى فجعت فى آمالها، وانتشروا فى الشوارع والحارات، وعاد الصمت العاصف الغاضب يبسط رواقه على أحيائها . . وكفت ماكينات الطباعة فى محل «عجينة» عن الحركة وتوقف صدور جريدة الجمهور . . وانتظر الناس على مضض ما يجد من أحداث . . وعاد «الشيخ عنبة» إلى القرية يجر أذيال الحسرة والخيبة . . وعندما قابله «الخواجة ينى» فى الطريق قال :

– ما هى آخر الأنباء أيها الثائر العظيم؟

فسدد إليه «عنبة» نظرات نارية، وقال :

– استسلمت الجمهورية .

- هكذا بسرعة؟

- مؤقتًا يا خواجة.

- ومتى تعود؟

- ستعود الجمهورية عندما يشاء الله.. وعندما تعود فستشمل مصر كلها.. لا زفتى وحدها.

واهم من يظن أن التضحيات بلا ثمن.

لقد رأت قوات الاحتلال ألا بد أن تتراجع.

أعلنت الإفراج عن سعد زغلول ورفاقه.

ووعدت بعض الوعود البراقة المعسولة.

لكن «سعد» خرج من منفاه دون تغير يذكر.. الإنجليز مصرون على الحماية، ومؤتمر الصلح- الأمل الكبير - أقر الحماية، وأقرها معه «ويلسون» الذى ترددت تصريحاته عن تقرير المصير فى شتى أنحاء الأرض كذبًا وبهتانًا.. وظلت المحاكمات العسكرية قائمة.. وجاءت لجنة إنجليزية تدعى لجنة «ملنر» لدراسة الأحوال، فقاطعها الشعب احتجاجًا على بقاء الحماية.

وشبت نيران الثورة من جديد.. واندلع لهيبها فى كل مكان.. وذهب وفد للمفاوضات فى لندن، ودارت المفاوضات فى حلقة مفرغة.. إن المفاوضات مأساة جديدة، يحاول الاستعمار أن يشغل بها الأمم المكافحة.. تضييعًا للوقت، ولكى يجد ثغرة ينفذ

منها إلى أغراضه الخبيثة.. غير أن الطوفان لا تخدعه الألاعيب الصغيرة، ولا يهمه أن تفرج السلطات عن ثلاثة زعماء أو أكثر أو أقل، ولا يكترث للأوهام والأخاديع التى يروج لها الأعداء والأذناب. . الطوفان ينطلق؛ لأن فيه طاقة ذاتية تحركه. . الطوفان ينطلق. . والرايات المصبوغة بالدم تخفق. . والأرض الخضراء تشتعل بنيران الحنق والتمرد على الطغيان. . والأمة تعيش بلا وزارة. . لا يجرؤ واحد من الباشاوات أن يتسلم مقاليد الحكم إبان ثورة الطوفان الصاخب. . ومن يحاول طعن النضال المقدس تلاحقه الاعتداءات، ويكمن له الموت فى كل مكان.



•• الفصل الثانى والعشرون

لا ينكر أحد أن «الخواجة ينى» -اليهودى الأصل بارع فى طرق الاستغلال، متمكن فى فن إنماء الثروة، وإرباء ماله، حتى لكأنه قد ولد وليس له رسالة فى الوجود سوى جمع المال بأية وسيلة، وكان طريقه شائكًا، لكنه كان شديد الحرص، يعرف متى يتراجع، ومتى يتقدم، ومتى يهرب من المعركة، وكان يعتقد بحكمة غريبة لعله هو مؤلفها، وهى «لكى ينمو مالك.. وتنجح فى الحياة.. يجب أن تعيش بلا ضمير».. ومن ثم كان يعتبر الرحمة سذاجة.. والتصديق -لغير هدف- غباء، والصداقة -دون هدف مادى- لا وجود لها.

ولا ينكر أحد أيضًا، أن «الخواجة ينى» رجل ذكى، أو مفرط الذكاء.. فلقد نظر فرأى أن القرية أثناء الحرب.. غيرها فى عام ١٩١٩ عام الثورة والانطلاق والأفكار الجديدة.. أصبح الناس يدركون وضعهم، ويفهمون أن لهم حقوقًا ضائعة يجب أن تسترد.. وأن لهم -كبشر- نصيبًا فى الحرية يجب أن يأخذوه

أخذًا . . ولم يعد خافيًا عليهم أن مصير بلدهم مهدد . . وأن من احتلوها دخلاء . . لا يرتكز بقاؤهم فيها على أساس شرعى، وأدرك الناس قيمة العلم . . فأخذوا يبعثون بأبنائهم إلى المدن كى ينهلوا المعارف فى المدارس المختلفة . . ورأى أهل القرية بأعينهم أن الخمر التى يبيعها «الخواجة ينى» فساد وبوار، وأن التعامل مع «الخواجة» . . على تلك الصورة البشعة، مآله الخراب والإفلاس . . وأن مساندة الظلم خسة وفناء . . كما حدث لخفاجة .

أدرك الخواجة كل ذلك، فلم يكن أعمى حتى لا يرى الطفل وقد تحوّل إلى شاب قوى . . والنوم قد رحل وحلت محله يقظة شاملة . . ورأى أنه لا بد من تغيير سياسته . . الإنجليز -بقواتهم وعنفوانهم- تراجعوا وخففوا من لهجتهم، وليس «الخواجة» أقوى منهم حتى يصمد ويتمادى فى استغلاله .

وقرر «الخواجة» أن يتحول من القرية إلى المدينة . . و اختار الذهاب إلى الإسكندرية . . وفى الإسكندرية «البورصة» والأسهم والسندات وتجارة القطن، ومعه المال الكثير، ولديه الإيراد السنوى الضخم، ومئات الأفدنة ليست بالثروة البسيطة . . هناك سينمو على نطاق واسع . . وسيصبح عميلاً مهمًا فى البنوك . . وواحدًا من المستوردين والمصدرين للسلع الاستهلاكية .

والحاج «إبراهيم» وكيله رجل يعتمد عليه . . ولن يتهاون مع أهل القرية، ثم إنه تتلمذ على يديه، وقد يتمكن من فرض السيطرة

الكاملة على الفلاحين، فللأرض قيمتها، وكل فلاح فى حاجة إلى أرض يزرعها . . لأن أغلبهم معدمون، أو من صغار الملاك . . لا شك أن الأمور ستمضى على ما يرام .

أجل . . لقد استنفذ «الخواجة» أغراضه من القرية . . وأصبحت القرية مجموعة من القاذورات، ومباءة للذباب والبعوض والتراب والأمراض . . لكن الإسكندرية ستكون نظيفة جميلة، وستترعرع فيها آماله الجديدة . . ومع ذلك فسيظل كنز القرية يدر عليه الكثير .

كان «الخواجة» يجلس عصر يوم من الأيام . . يفكر فى تنفيذ الخطة التى درسها بدقة وإمعان . . ورأى امرأة تدلف إلى الداخل لابسة ثوبًا أسود ضافيًا . . متلفعة بشال أسود أيضًا تخفى جزءًا كبيرًا من وجهها الشاحب، وتذكر «الخواجة» أيام زمان . . تذكر الأرامل اللاتى كن يجئن تحت جنح الظلام . . أو متخفيات أثناء النهار، ويطلبن منه قرضًا . . ويوقعون على أية نسبة يقرضها عليهن كربًا . . وتذكر كيف كان يطرب لمجيئهن، ويستشعر سعادة ما بعدها سعادة . . لكنه لأول مرة لا يشعر بارتياح لمقدم تلك المرأة، لعل السبب فى ذلك هو إلغاؤه للخطة القديمة . . وصب اهتمامه كله على السياسة الجديدة التى يزمع انتهاجها .

وقفت المرأة قبالته، وطأطأت رأسها فى ذلة، وقالت :

- أعرف أفضالك على زوجى .

فقال في جفاف :

- ثم ماذا؟

- وظل مخلصًا لك طول حياته .

- تشرفنا .

فأزاحت الغطاء عن وجهها، وقالت :

- ألا تعرفني؟ أنا أرملة «خفاجة» .

وهتف «الخواجة» في دهشة :

- خفاجة؟

- أجل . . أنا زوجته .

فهز رأسه في ضيق وتمتم :

- الله يرحمه .

- جئت إليك . . وأنا واثقة أنك لن تخيب رجائي... منذ أن مات ونحن في حيرة . . «الحاج إبراهيم» وكيلك طردنا من الأرض .

- لأنكم لم تدفعوا إيجارها .

- كنا في ضائقة .

- وماذا تريدين الآن؟

- فدانين اثنين نرتزق منهما .

رد في برود :

- آسف .

قالت في دهشة :

- كيف؟ لسوف أدفع الإيجار كغيري من الناس .

-آسف .

- لماذا؟

- لأن الذي يخل باتفاقاته معي مرة واحدة لا أئتمنه بعد ذلك . . أنت تعرفين .

- نحن لم نغدر . . كان موته مفاجأة . . ثم إنك كنت وعدته بإعفائه من الإيجار . . كان صديقك يا «خواجة» . . ترى أن عطفك على أولاده -وأنت قادر على ذلك- حسنة تقدمها لصديق قديم؟

لم يعد لدى «الخواجة» ذرة من صبر . . فهتف في تأفف :

- عندما مات «خفاجة» . . مات كل شيء .

- حتى الصداقة؟

- لا أصادق الموتى .

- لكن الوفاء لذكراهم واجب .

- لا وفاء لقاتل . . لم أحبه يومًا . . كنت أتقي شره، أنت تعرفين . . أمن الضروري أن أتكلم بصراحة . . اذهبي وإلا استدعيت الخفير .

خرجت متعثرة، ودمعتها على خدها . . لم تكن فى يوم من الأيام أشد حنقًا على زوجها من هذه اللحظات . . مات، ولم يترك وراءه أثرًا طيبًا، حتى أصدقاؤه تنكروا له، ومات وترك لها أطفالاً وفقرًا وذكرى سيئة مشينة . . وضحايا وأحزانًا . . أين تذهب، وقد كان مفتاح رزقها فى يد شيطان لا يرحم فغدر بها؟ ليس هناك فائض من الأرض عند أحد . . ماذا أفعل؟

لكن صوت «الشيخ عنبة» يتردد فى آذانها، وهو يناقش أمورًا سياسية مختلفة مع فئة من الرجال، إنه يتكلم عن «سعد» و«لجنة ملنر»، وعن السلطات الإنجليزية التى أعدمت مأمور بندر أسيوط بتهمة تسليمه أسلحة للثوار، حيث كان من نتيجة ذلك مصرع عدد من الجنود والضباط الإنجليز . . وكيف أن السلطات رفضت تخفيف الحكم الصادر ضده . . لم تكن زوجة «خفاجة» تعرف كثيرًا عن السياسة، ولم يكن فى رأسها شىء سوى مشكلة واحدة «لقمة العيش» ولا شىء غيرها . . و«الشيخ عنبة» رجل طيب طاهر، حقًا إن «دكانه» فيه قليل من البضائع. لكنه لا يتراخى عن تأدية الواجب . . لقد سمعته من وراء ستار ذات ليلة، وهو ينصح زوجها، كانت كلماته تصل إلى قلبها. ولكن زوجها أصم أذنيه وقلبه عن النصيحة، لقد عادت إلى ذاكرتها تلك الليلة . . ليت «خفاجة» سمع النصيحة واستقام . . إذن دلفت إليه وشرحت له الأمر . . أطرق ساهمًا، ثم قال:

- عودى إلىّ فى الصباح الباكر .

ظلت طول الليل تحلم بالغد. . أحقًا تتحقق المنى، ويرزقها الله بقطعة أرض تزرعها بالإيجار؟ وإذا حدث ذلك. . فهل يمكنها أن تقوم على خدمة الأرض هي وأولادها؟ إنها على استعداد لأن تذهب إلى الغيط هي وأولادها، فليس هذا بجديد عليها، ستزرع القطن والذرة والقمح، وتجنى المحصول آخر العام. . أحلام كثيرة، وذكريات مريرة كانت تضطرع في قلبها.

كانت تستعد في الصباح للذهاب إلى «الشيخ عنبة». . لكنها تسمع دقات على الباب، وتذهب لتجد القادم هو «الشيخ عنبة»، إنه يقود حمارًا. . وفوقه جوال ممتلئ، وقال «الشيخ عنبة»:

– بضع كيلات من الذرة. . مجرد دين عليك سوف آخذه فيما بعد. . أرجو ألا ترفضيها. . ولقد اتفقت مع حضرة «العمدة» على أن يعطيك فدانًا تزرعينه بالإيجار؟

فدقت على صدرها، وهي لا تكاد تصدق، وقالت:

– حضرة العمدة؟

– أجل. . إنه رجل طيب. . ثم إنه لا يحقد عليك.

– لقد أردنا قتله.

لننسَ ما فات. . كلنا إخوة. . والستار هو الله.

***

وسافر «الخواجة» إلى الإسكندرية نهائيًا.

وبقيت «عزبة الخواجة».

٥٥ الفصل الثالث والعشرون

الثورة لم تتوقف وإن انتابتها فترات هدوء، والهدوء أمر طبيعي وله مبررات في كثير من الأحايين، قد يكون قسطًا من الراحة، يستجمع فيه المناضلون قواهم، ويلمون شتاتهم، ويلتقطون أنفاسهم بعد مسير طويل، وقد يكون الهدوء فرصة للتروي.. لعل العدو ينظر إلى الأمر بعين العدل والعقل، ويستجيب لنداء الضمير، فيخلي السبيل أمام موكب الحرية كي يتقدم، وقد يكون الهدوء من جراء وعد معسول.. أو تسليم مبدئي بالحق المطلوب.. فليس من المعقول أن يلجأ المناضلون إلى الثورة والعنف والتضحيات، في وقت يمكنهم أن ينالوا أهدافهم الشريفة دون إراقة دماء، وهذا ما كان يحدث دائمًا في أيام المفاوضات.. والتي كانوا يطلقون عليها حل القضية بالتفاهم والطرق السلمية.

لكن الطوفان لا يعرف التوقف.. ولا يعرف الهدوء أيضًا.. قد لا ترى العيون تدفق الطوفان على السفوح، وعبر الأرض الخضراء.. لكن الطوفان له مجرى آخر.. قد يخط طريقه في الأفكار والعقول.. كل يوم يجد جديد، وتكسب الجماهير

خبـرات، وتنمـو مـداركـهم مع الأحـداث وفى داخلهم ينطلق الطوفـان بسـرعـة الريح. . ويقبل مـارس عـام ١٩٢١، ويؤلف «عدلى» وزارة جديدة. . تكون مهمتها التفاهم مع الإنجليز من أجل نيل الاستقلال، ويشترط الإنجليز ضمان مصالحهم، -وهو تعبير مطاط- قبل بدء المفاوضات، ويطلقون على الوزارة الجديدة «وزارة الثقة» وتمر فترة قصيرة من الهدوء النسبى.

وينظر «عبد العزيز شلبى» فيرى ابنه «أحمد أفندى» وقد أصبح «باش مهندس»، أول باشمهندس فى القرية. . ويرى «عبد العزيز» أهل القرية وقد أحاطوا بولده من كل جانب. . يباركون شبابه بكلماتهم المخلصة. . ونظراتهم التى تفيض حبًا وتقديرًا، ويطلب منه بعضهم أن يتوسط لدى أولى الأمر حتى لا يضيقوا عليهم فى توزيع مياه النيل. . وحتى لا يحرموهم منها ويتركوها تفيض على عزب الباشاوات والأغنياء الكبار، ويؤكد لهم «أحمد» أنه لن ينساهم لأنه ابنهم جميعًا، ولا يعقل أن ينسى الابن أهله، وينقض عليه «الشيخ عنبة» لا يدرى من أين أتى، ويقول:

- ولا يمكن أيضًا أن ينسى أصهاره. بلدك فين يا جحا؟ قال: اللى فيها مراتى.

وضحك الجميع.

ويذكر «أحمد» «صابرين» التى طال صبرها. . فيلتفت إلى أبيه متسائلاً:

- متى؟

- فى الوقت الذى تشاء.

ويضحك «عنبة» قائلاً:

- ما هذه الألغاز؟ أفيدونا عن موضوع الهمس.

فيبتسم «أحمد» ويقول:

- لا شك أن «الشيخ عنبة» سيكون وكيل العروسة.

- وكيل عروسة شىء جميل. أما وكيل «الخواجة ينى» فأعوذ بالله.

فاجتاحت الواقفين موجة من المرح الحقيقى، وأعجبتهم دعابة «الشيخ عنبة» الذى يهدف إلى نقد «الحاج إبراهيم» وخاصة أنه قد تحول فى تلك الأيام إلى حاج غريب لا يفترق كثيراً عن «ينى».

ولا يكاد ينصرم شهر واحد حتى تكون قريتنا غارقة فى الأفراح.. إن الباشمهندس يتزوج «صابرين» وحضرة العمدة يجلس فى الصدارة، وعن يمينه «الشيخ عبد العزيز شلبى» وعن يساره «الشيخ عنبة»، ثم «أبو المعاطى الشافعى».. ودقات الطبول تكاد تصم الآذان، والزغاريد تتردد صداها فى آفاق القرية، وزوجة العمدة تطبع قبلة حانية على خد فتاتها وتهتف والدموع ملء عينيها: «ألف مبروك يا حبيبتى».

●●●

«الشيخ عنبة» قد تقدمت به السن . . لكنه حريص دائمًا على مجالسة الشباب . . كلهم أبناؤه، ويظل يحدثهم فى «دكانه» الصغير عن ثورة عرابى . . وعن حبيبه «جمال الدين الأفغانى» . . وعن جمهورية زفتى فى ثورة ١٩١٩ ويحدثهم عن أحلامه الخاصة بتوزيع الثروة، ويؤكد لهم أن الأرض حق لمن يزرعها، وأنه دعا إلى ذلك كثيراً . . لكن لا حياة لمن تنادى، ويروى لهم الكثير عن روائع الشعر التى تتغنى بمجد الوطن . . ويقرأ لهم شعر «حافظ إبراهيم» بصوت متهدج مؤثر ثم لا يفتأ يقول لهم :

– يا أبنائى . . القضية واضحة . . ها أنتم ترون أن المفاوضات على وشك التوقف، ووزارة الثقة توشك أن تنهار . . والإنجليز هم الإنجليز . . إن أدق وصف ينطبق عليهم هو ما قاله واحد منهم اسمه «مستر بلنت» وهو صديق حميم لنا– لقد قال فى عام ١٩١٠ : احذروا منا . . فإننا لا نريد لكم شيئًا من الخير . . لن تنالوا منا الدستور ولا حرية التعليم ولا الحرية الشخصية . . وما دمنا فى مصر . . فالغرض الذى نسعى إليه هو البقاء فيها . . هو أن نستغلها لمصلحة صناعتنا القطنية فى مانشيستر . . وأن نستخدم أموالكم لتنمية مملكتنا الإفريقية فى السودان، وأن نستمر بأقل حياء من الماضى فى تنمية مشروعاتنا المالية الإنجليزية الصهيونية فى بلادكم، وأن نقيد أيديكم وأرجلكم لنجعلكم هدفًا لأطماعنا الاقتصادية. لم يبقَ لكم عذر إذا أنتم انخدعتم فى نياتنا، بعد أن وضح الأمر فيها وضوحًا تامًا . . فاحذروا أن تنساقوا إلى الرضى باستعباد

بلادكم ودمارها، ثابروا على أن تعارضونا معارضة جهرية جريئة كل يوم. . اطلبوا بلسان واحد، وفى كل فرصة أن يوضع حد لما تتألمون منه، وأن نعود نحن إلى حظيرة القانون. . وأن نسحب جنودنا من بلادكم. . وأن نكف عن التدخل فى شئونكم. . اطلبوا ذلك فإنكم بطلبه لا تخسرون شيئًا، إذ نحن غرباء فى بلادكم، ومن حقكم أن تطالبونا بترككم، ذكرونا دائمًا وبكل وسائل الإعلان لا حق لإنجلترا فى أن تتصرف عندكم تصرف السيد، وأنكم لا تريدونا حامين لكم، ولا مستشارين ولا منظمين لإدارتكم. . ولا تتركوا لنا عذراً نعتذر به لندعى لأنفسنا شيئًا من ذلك، وفى اليوم الذى يفهم فيه ذهن جمهورنا الثقيل أن الفائدة من احتلال بلادكم لا توازى المتاعب والأخطار التى يسببها، نرى أنكم محقون فى ترك بلادكم، وثقوا بأننا لن نترك بلادكم قبل ذلك بلحظة واحدة.

هذا ما قاله مستر «بلنت» يا أبنائى الشباب.

ويجفف «الشيخ عنبة» عرقه، ثم يستطرد:

- هذا هو القول الحق.

فيرد شاب متحمس يقول وقد سيطرت عليه موجة من الانفعال:

- إننا لم نفعل فى ثورتنا غير ذلك. . نحن نعرف الطريق وحدنا.

ويبتسم «الشيخ عنبة» وتمر بذاكرته ألوان شائقة من قصص الكفاح، ويهمس:

- لكن الحكومة لا تفعل ذلك الآن. . لقد قنعت بالمفاوضات. . ودوركم أنتم أنت تحيلوا هذه الأحاديث المملة- المفاوضات- إلى صرخات مدوية. . إلى ثورة حقيقية، فالحرية تؤخذ ولا تستجدى. . هكذا يقول التاريخ. . وفى هذا المعنى كان يتحدث حبيبى دائمًا. .

***

إن رحلة الطوفان لم تنتهِ..

الطوفان ينطلق عشرات السنين دون كلل أو ملل. . إن له غاية. . ولا بد أن يحقق غايته. . وتتصدى للطوفان قوى الشر والغدر، وتدور المعارك الدامية العنيفة، ولا يبلغ الطوفان مجراه الأصيل إلا فى عام ١٩٥٢م، حيث يتحول الطوفان إلى نهر للحياة. . يمد الأرض الطيبة بالنماء والخصب والحرية.

لقد مات «عنبة» منذ ثلاثين عامًا. . لكن أفكاره لم تمت. . أعلنت الجمهورية، لا فى «زفتى» وحدها، ولكن فى مصر كلها. . وعادت الأرض إلى الفلاحين أصحابها الحقيقيين. . وحمل الاستعمار عصاه ورحل ذليلاً، وتحقق النداء الخالد الذى ظل يتردد عشرات السنين فى صبر وإيمان.

وتبحث عن «صابرين» حرم «أحمد أفندى» فتجدها قد تخطت الخمسين من عمرها، وبدت التجاعيد على وجهها الطيب الوقور، وتبحث عن «أحمد أفندى شلبى» فتجده يزحف نحو الستين، والابتسامة تعلو شفتيه، وهو يتحدث عن ولده «خالد» مهندس الكهرباء فى السد العالى . . وتسأل عن عزبة «الخواجة ينى»، فيحدثونك بأنها قد تحولت إلى ملكيات صغيرة لأهالى قريتنا الذين صبروا طويلاً.

(تمت)



الفهرس

الموضوع | الصفحة

القسم الأول

فى جحيم الحرب

القسم الثانى

طوفان الثورة

●●●